العريف غضبان

قصص: حسن م. يوسف



جميل حمل ٢٧ - ٦ - ٧٨

العريف عضبان



حسان م. يوسف



منشورات
وزارة أنثقافة والارشاد القومي

دمشق
١٩٧٨

استفتاح

يومها كنت طالباً في مدينة جبلة الساحلية. كنت في كل صباح أروح إلى الكراج أنتظر زوادتي ومصروف يومي ورسائل إخوتي .

وذات صباح كانوني عاصف كنت في طريقي إلى الكراج وعندما وصلت أمام دار البلدية ناداني رجل من قريتنا – لن أذكر اسمه لأنه لايزال حياً حتى كتابة هذه الكلمات – سحبني تحت المطر إلى مدخل بناء خال . سلم علي بود وجفف يديه ببطانة معطفه ومسح شاربيه الشائبين المبللين بكمه وقال لي وهو يرتجف :

– « اسمع يا ابن أخي. كرمى لروح أمواتك لاتضحك عليّ » .

قلت له مطمئناً :

– « ولو يا خال(. .....) من يضحك عليك يعدم شبابه! خير إن شاء الله ؟ »

أخرج من جيب معطفه الداخلي نصف ظرف على زاويته ترويسة باللون الأحمر . خمنت محتواه فوراً . سألته بعد أن يئست من أين يبدأ الكلام :

- « ما قصة هذه الصور يا خال ؟ »

قال لي متلعثماً :

« أتعرف ابني (....) ؟ سيتقدم للشهادة المتوسطة هذه السنة . جئت لحضور محكمة ضبط الأحراج الذي كتبه المأمور بخزنه في العام الفائت ، الله يخرب بيته ، فأعطاني ابني الوصل حتى أخذ له صوره ... .شف لي بالله عليك يا ابن أخي . هل هذا ابني ؟ » .

كانت الصور لرجل مربوع أصلع جاوز الثلاثين ذي شاربين كثيفين وعينين كبيرتين وفم كبير فلم أستطع كتم ضحكتي :

« ما هذا يا خال ؟ ! وحق الرب لايساوي ابنك فخذ هذا الرجل ؟ ! كيف أخذتها ؟ ! »

قال لي وقد احمر من الخجل :

« وخزني قلبي و الله . أي والله وخزني قلبي » .

* * *

دخلت لوحدي فقد خمنت ما حدث . كنت أعرف صاحب الاستديو فرحب بي لكنه ما أن رأى الصور بيدي حتى خرج عن أطواره وأخذ يصرخ :

– « شيء يجنن ! واحد لايعرف صورة ابنه ! نزع صباحي ! دوخني ! نبشت له كل الصور ! العمى ! لن أرجعها ! خله يطق ويبلط البحر ! »

* * *

كان منكمشاً قرب الباب سحبته من يده ومضينا . وقبل أن نفترق سألته :

– « هل هذه صور ابنك ؟ »

فنظر إلي بغموض وخجل وقال :

– « تشبهه أي نعم تشبهه ... »

* * *

فإلى الرجل الذي لم يعرف صورة ابنه في تلك الصباحية العاصفة .

إلى الأحبة المقهورين ، الأميين المسحوقين يدي رقصي .

حسن م . يوسف



ملحوظـــة

القصص منشورة حسب تسلسلها الزمني

حسن



انزلاق أيوب تحت الشمس العمودية

– « انتشار ؟ تفرقوا ؟ بسرعة ؟ »

حنى أيوب ظهره المثقل بأشيائه . دار في كل الإتجاهات ثم انسل بين صخرتين وانبطح . مد يده ليزيح بعض الحصى من تحته ، تململ ، أطلق زفرة طويلة وهو ينقب السماء بعينيه العكرتين . كانت السماء كبحيرة في أرض كلسية . نظر أمامه عندما هزت نسمة متداعية حطام أشواك نابتة في الشق الفاصل ما بين الصخرتين . اشتم رائحة عنصر غريب على الهواء . عطس .

أول البارحة . كان الكابوس عجولاً ، عدة انفجارات .. سقوط أشياء من عل . . صمت . ثم قائد القاعدة يزعق فى جهاز الإرسال :

– « من نسر ثلاثة إلى ثائر . . من نسر ثلاثة إلى

ثائر . . من نسر ثلاثة إلى ثائر . أنا نسر . هل تسمعني ؟ حول » .

كان كل شيء عادياً . مسح عرقه المتصبب بطرف كمه الكتاني اللامح . . تذكر رفيقه صالح . اشتم رائحة رجليه الكريهة . . رفس قائمة السرير

— « ياللرائحة ؟ ما هذا يا صالح ؟ ؟ هل قبرت جثة ناقتك في رجليك ؟ ؟ » .

تحسس الضماد الذي يضغط على حاجبه . تمتم :

— « مسكين . . راح ! »

الإنفجارات تتوالى خلفه .

— « مساكين جماعة التغطية » .

مازالت السماء التي تطل عليه من بين الصخرتين باهتة زلقة . . زلقة كتلك المرأة ذات العينين الزجاجيتين . قالوا له بأنها ستكون زوجته . . كانت عارية عندما تعرف عليها . . حاول استرجاع ملامحها عله يجد فيها بعض عزاء.. حب . . كراهية . . أي شيء لكن العينين الزجاجيتين كانتا مغمورتين بالغبار كأسلحة هزيمة قديمة في صحراء مهجورة . ليلتها . . اربع مرات . . حاول أربع مرات . .

أربع مرات ! اللعنة على أنفاس أبيها ! ليلتها أحس أيوب بصدره يضمحل متطاولاً كصدر النحلة . . النحلة . . النحل . . كان أيوب نحلة غمر الثلج خليتها . . نحلة صغيرة في الثلج . . الثلج الذي يقتل النحل التائه .

أيقظ زوجته العذراء . قال لها وعيناه معلقتان إلى الحائط الهرم :

– « استريني الله يسترك ؟ »

فتح الباب . لفحته زغرودة ممطوطة . اندفعت عينا امه إلى الوسادة . . الغطاء . . الشرشف . . وجه أيوب . انتصبت الحقيقة أمام عينيها كجدار ظلام . اتسعت حدقتيهما بسرعة كنقطتي زيت سقطتا على سطح مستو . كانت عيناها تريدان الدم وكانت عينا أيوب ما تزالا معلقتين إلى الحائط الهرم .

دوى أزيز الطائرة القارس فوق رأسه . . أشتد . . اقترب . . اقترب . . أقفل الرؤية وابتعد بطرفةعين . فكر أيوب بوجه الشبه بين الزغرودة وأزيز الطائرة . سقطت حصاة بجانبه . انتفض وإصبعه على الزناد . دارت عيناه في محجريهما . رقصت عضلة فكه بلا شعور منه . رأى الحصاة تستقر عند ركبته . تمتم بارتياح غاضب :

– « العمى ؟ هل أنا جبان إلى هذا الحد ؟ » .

أحس بأخمص بندقيته يرتجف . يزداد دفئاً . نظر إليها بحنو وهزها . تمتم :

– « لحسن الحظ ليس للبندقية قلب . القلب يخاف لكنه يحب أيضاً » .

تفجر الأزيز فوقه . . اندفعت كتلة سوداء نحوه من السماء . . ميزها وهي تنقض . . شعر بأنها تختزل كيانه . تنفس بعمق عندما ارتفعت .

– « ابن الكلب . . والله . . ياالله ؟ ! ! »

بترت تفكيره كتلتان هائلتان انطلقتا من جناحي الطائرة .

« طب . . طب »

قفزت عناصر الأرض إلى السماء . ارتفعت . . ارتفعت . . انحنى الثقيل منها أولاً ثم أخذت تقرع الأرض بشدة متفاوتة .

استعاد أيوب وعيه ببطء ودخل مملكة الألم . . حرك يده اليمنى . حرك ساقيه تباعاً . لم يكن يسمع إلا الطنين . . الطنين يمبح رأسه . يعزله عن الإنفجارات التي تمزق الهواء

حوله . أحس بشيء يدب على صدره ، فيما بين جناحيه . أحس به يتكوم في سرته . . يستقر لحظة ثم يتابع دبيبه ليهوي بين فخذيه .

فتح عينيه . وخزهما بريق بلورات الصخرة التي هشمها الإنفجار . أغلق عينيه بتثاقل وانزلق إلى الداخل فقد كانت الشمس عمودية وتحت الشمس العمودية تغوض الظلال ويبقى الإنسان فرداً .



— « دخيلك ياأخي وصلوا ؟ »

هب صوت من الخارج :

— « ارم المليشيا واطلع ؟ »

قفز أيوب عن السرير . ضغط على ضماد في منتصفه بقعة حمراء في ساقه اليسرى . نظر إلى قضبان النافذة . نظر إلى مخزن بارودته الفارغ . اختطف حذاءه من تحت السرير تناول الجورب . .

— « اخرج ياجحش ؟ »

عبقت في أنفه رائحة الدم المتخثر . منذ عام بكى

بينما كان يقلب الجثث بحثاً عن أخيه وها هوذا الآن يرى الموت سهلاً لايحتاج لأية مهارة .

– « تحرك ياكلب ؟ »

تمتم :

– « يا للمدينة ؟ ! »

توقف عن الضحك عندما تعرف على الوجه المختبىء وراء لطخات الشحتار .

– « أنت ؟ »

– « امش ! »

– « عندك دخان ؟ »

– « خذ . خذها كلها . قد تكون علبتك الأخيرة . تحرك ! »

يومها تذكر أيوب حاتم طيء .

سار رافعاً يديه بين صفين من الجنود دون ان يحس بجوربه الذي كان ما يزال في يده اليمنى . كانت المدينة دامية الساقين مجللة بالدخان .

اقترب من استحكام رشاش ٥٠٠ يركع وراءه أحد « الأشبال » وإلى جواره آخر . لم يكن أيوب يعرف إلى أين هو رائح مرفوع اليدين . كل واحد يقول له :

« امش ؟ »ولا أحد يقول له إلى أين . لم يشعر بأنه انحرف عن الطريق دون أن يدري به أحد . لمح الشبل الأول الكتلة السوداء في يد أيوب المرفوعة فسحب أكرة تعمير الرشاش برعب وقبل أن يضغط الشبل على الزناد بثوان تذكر أيوب الجورب فمد يده بسرعة مذهلة . نتر الجورب . مطه ورماه قطعتين . لحظتها لم يع أيوب مافعل .. لم يكن يحس بأي شيء حوله . كان كتلة . كتلة يابسة . خطوة . . خطوتان . . . . أربع . . ست .

— « ياالله ؟ ! ظنوه قنبلة ! يا ربي ! ! »

ويومها أحب أيوب الحياة .

أراد أن يقول شيئاً كبيراً . تمتم :

— « إن قسوة الحياة تصبح بعد تجربة الموت عذبة كرغيف ساخن على التنور » .

هز رأسه كأن الفكرة لم تعجبه . وفجأة وجد نفسه بين طابور المعتقلين مرة أخرى ؟ ابتسم بذهول .

— « انعطف إلى اليسار ياتيس ! »

انعطف . ازدادت سبحة الخوذات تراصاً . دفعه أحدهم إلى الداخل مع ركلة وشتيمة . لم ينظر إليه .

لقد تعلم أن لاينظر إلى من يهينه عندما تكون الحياة هي الثمن .أقعى فوق الرمال . نقل عينيه بين العربات المصفحة.. المدافع الرشاشة . الجنود المتلفعين بأرديتهم السميكة . وخزه جرحه ، فمد رجله على طولها .

كان الغروب حزيناً . كانت الريح تلدغ وجوه المتكومين فوق رمال المعتقل . كان واحد منهم يبكي

ارتفعت الرؤوس تباعاً ، شبت لغة العيون . تيقظت حواس أيوب كلها :

– « يا لقسوة العيون . لغتها جارحة دائماً . . »

لم يعد هناك فرق بين عيونهم . لقد عادت الألوان لأصلها الدامي . ببطء تلاقت . تعاتبت وعندمابرقت تدفق منها لحن حزين صاف كانوا جميعاً يدركون أنه غير مسموع لكنهم سمعوه جميعاً .

رأى أيوب في عيون رفاقه ألقاً نارياً .

أراد مرة أخرى أن يقول شيئاً كبيراً . تمتم :

– « أليس العيش بطولة ؟ ! ترى هل الأبطال هم الموتى فقط ؟ »

قال لنفسه :

– « ربما سمعت هذا من قبل : لا ، لن أكون فيلسوفاً ناجحاً » .

انحنت الرؤوس على التوالي . همس أيوب في أذن جاره :

– « الليل بارد هنا . هيا نحفر قبراً كي ننام فيه » .

بدأ أيوب يجرف الرمال بكلتا يديه . . ارتفعت الرؤوس . . صفعتها الزوبعة الرملية . امتدت بعض الأيدي . امتدت أيد أكثر . ابتسم أيوب :

– « إن للأيدي لغتها أيضاً ؟ » .

غمر نفسه بالرمل وتلثم بقميصه الداخلي . همس جاره :

– « غط عينيك ! »

رد أيوب بصلابة :

– « كلا . أريد أن أرى وجه قاتلي ! »

* * *

بلورات الصخرة تلمع تحت أشعة الشمس . كانت الشمس ما تزال عمودية . فتح أيوب عينيه . حاول تحريك

ساقيه . أحس ببنطاله المغطى بالدم المتخثر ينتف شعر فخذيه . . نهض ببطء أليم مغمضاً عينيه بشدة . ترامى إلى أذنيه نباح كلاب وضجة بشر . إنهم قادمون . ميزهم من نباح كلابهم . تكور بين الصخرتين. تحسس بندقيته . كان أخمصها ما يزال دافئاً .

شعر بلزوجة الدم في حذائه المطاطي . اشتبهت عليه الرؤية . . تلك المرأة ذات العينين الزجاجيتين . المخيم . . القبر الرملي . . حبيبته سلمى التي باعوها . . الإحتقار . . . موظف الإعاشة المترهل . قبر أمه المسلولة . . المعتقل . . وجوه رفاقه . .

تدحرجت من عينه اليمنى دمعة كبيرة . قوي نباح الكلاب . . تناول قنبلتين من حزامه القماشي . نهش صماميهما . كانت عيناه حمراوان تحت كل منهما هلال إرهاق أزرق . اقترب نباح الكلاب . إنه تحته في بستان الزيتون . مط رأسه من بين الصخرتين . بانت خطوط سمراء في طبقة الدم المتخثر على عنقه . مط رأسه . . أكثر . . أكثر . . انطلقت بنادق رشاشة من بين أشجار البستان. قفز أيوب من بين الصخرتين . رفع كلتا يديه . . التوى . . تدحرج على المنحدر ثم هوى من فوق الإنهدام . وكان انفجاران .

كانت الشمس ما تزال عمودية وتحت الشمس العمودية تغوض الظلال ويبقى الإنسان فرداً .

لكن ظل أيوب تناسخ تحت الشمس العمودية أشجار زيتون امتدت أوراقها دروباً فضفاضة إلى البحر المالح .

. دمشق – كانون الثاني١٩٧٣



اطمئنان

— « أهلي محافظون . . ابتعد أرجوك ! إنهم ينظرون الينا !»

— « لم أعد أهتم . أريد أن أراك ! »

— « غداً هنا بعد الدوام » .

* * *

. . . . وانتهت كآبة الحجارة السجينة في جدران المدينة ، تدفق الدم في خلاياها الجافة الهرمة وابتسمت. اندلع قلب وديع . شب . اندفع بين أضلاعه فرساً برياً أهوج يقرع دروب الجسد المهجورة بحوافره فهرول الدم مذعوراً في شرايينه كما الأطفال في زواريب القرى عندما تهجم الخيالة .

« غداً هنا » .

اضطرمت عيناه ألقاً . هب يعدو في الشارع المزدحم وبواكير البحر تتدفق في روحه تردم تجاعيد الكآبة عن

جبينه المتعب . قفز ملتفاً كي يتفادى أحد المارة شرع يصفر لحناً لم يسمعه من قبل . ارتطم بشاب رصين يرتدي بزة سوداء . رمقه الشاب بنظرة غضبى . قال مرتبكاً !

— « المعذرة يا أخي. آسف . . آسف والله . . . »

عانق الشاب كما لو أنه حبيبته ! أردف :

— « عفواً ياصديقي . . أنا آسف . . آسف جداً ! » :

وانطلق من جديد تاركاً الشاب الرصين كتلة سوداء ذاهلة .

عرج على محل لبيع الزهور . طلب وردة حمراء . رمقه البائع بنظرة استخفاف . تشاغل عنه بقطف حبيبات العرق عن جبينه . شلح قطعة النايلون التي كفن التاجر الوردة بها . تابع الركض . توقف . تمتم بنشوة :

— « أيها الناس ، لكم أنتم طيبون . لكم أحبكم .أنتم رائعون . رائعون ! وعالمكم في غاية الجمال . » .

انطلق ، وصل إلى ناصية الشارع . تعلق بعمود كهرباء ، قفز حوله بحركة دائرية . لمح شاباً وفتاة يعبران الشارع متماسكين بالأيدي . تمتم :

— . . إنه الحب ! ماأجملهما ! » .

اتسعت ابتسامته . اقترب منهما بجرأة لم يعهدها في نفسه :

ـ « عفواً . أنا سعيد . . سعيد جداً . أتسمحان أن أقدمها لكما ؟ إنكما . . . . »

وضع الوردة على كتب الفتاة . نظر إلى الشاب المندهش المتحفز للصراع ثم تدفق من جديد نبعاً بشرياً فوق الإسفلت الأسود .

✶ ✶ ✶

أخيراً جاء الليل وانسحبت المدينة إلى درقتها المسلحة واختبأت الأغاني . كان المنبه متربعاً على منتصف طاولة وديع يلكز الصمت برتابة مستفزة معلناً أنه سائس الوجودات النائمة وسواها .

حدق وديع في عقرب الثواني . أحس بصوت المنبه يتضخم بازدياد فما كان منه إلا أن لفه في معطفه وألقى به خلف الباب . تناول دفتر التحضير .

« لاتلمه إن لم يحضر ياسيادة المدير . يبدو أنه قد وجد من ستقتاده من أنفه إلى معلف الزوجية . أنا أعرف هذا النوع من البشر . . يحدث زلزالا صغيراً عندما يقع ثم يعيد حساباته بهدوء ويمضي

باسماً الى المسلخ ! رحمه الله سلفاً . لقد كان معلماً ممتازاً ! » .

أخرج صورة من حافظة دفتر التحضير . استعرض وجوه تلاميذه الواحد تلو الآخر . توقف عند طفل هزيل ذاهل مشار اليه بسهم .

— « خلف ماذاتريد أن تكون في المستقبل؟»

— « أريد أن أكون . . . . فلسطين ياأستاذ » .

— « اسمع يابني . لقد أضاعت السياسة الكثير . أوصيك أن تعمل بشرف وأخلاق أما السياسة فليست للدراويش أمثالنا . أتفهمني يابني ؟ » .

— « نعم استاذ » .

تذكر الحليب الذي وضعه على النار منذ مدة طويلة أطلق ضحكة مكتومة وقفز باتجاه المطبخ .

« أعني الأستاذ وديع ، إنه يبالغ في اهتمامه بذلك التلميذ ! ماذا لو فعلنا كلنا مثله واشترينا الحليب لتلاميذنا المصابين بسوء التغذية ؟ لاشك أننا وأطفالنا سنصاب بنفس المرض ! » .

تهادى إلى أذنيه وقع أقدام مضطربة في الخارج . تعثرت

يده بعلبة طعام الكناري . تذكر بأنه لم يطعمه منذ الصباح .

التقط العلبة وعاد إلى الغرفة بادي القلق . ربت على قضبان القفص . أخرج الكناري رأسه من تحت جناحه الأيسر ونظر إلى وديع دون أن يتحرك . همس وديع :

ـ « ياللطائر الحبيب ، مساء الخير ياأخي . . لم أنت حزين هكذا ؟ كن صبوراً ، لن تطول وحدتك ، ستتزوج أنا وأنت في نفس اليوم . سأشتري لك زوجة جميلة مثل بديعة . قسماً لو رأيتها ياصديقي لفك عقال لسانك ولسبحت الخالق بلسان عربي مبين ! » .

« غداً هنا بعد الدوام » .

نظر إلى الكناري بعذوبة ودفء ، تابع :

ـ « سنتقابل غداً . . غداً ! أتعرف ماذا يعني هذا ؟ بسمة فموعد فلقاء فالسلام عليكم ! سندخل السينما ، سأنظر اليها طوال الفيلم وسأغازلها برجلي كما نصحني الأستاذ سلامة ، لعنه الله ! وعندما تبكي البطلة على صدر البطل سأضع يدي على يدها . . أجل سأقبل يدها وليأت الطوفان ! » .

قاطعه وقع أقدام عجلى على الدرج . شعر بالخجل .

« لقد عدت مراهقاً يا ماشاءالله ! »

جلس إلى المنضدة ، تناول قلمه . رسم دائرة كبيرة

. . . رسم في داخلها عدة خطوط ، تحولت الدائرة إلى وجه مقيت ينظر إليه باستخفاف . مزق الورقة.التفت إلى الكناري المنهمك في تناول عشائه . ابتسم من جديد . تناول القلم . كتب في منتصف الصفحة البيضاء :

« في كل الأيام ، كنت أغادر مدرستي مشبعاً بالبسمات الشاحبة ، أسير في الأزقة الفقيرة المزدحمة وتلاميذي من حولي يتغامزون ويصخبون .

في كل الأيام ، كنت أعود وحيداً إلى غرفتي . أحمل أرغفة الخبز الساخنة في يدي وحسرة الأيام الباردة في قلبي .

واليوم كاد أن يكون البارحة لكننا عندما التقينا احتشدت الغيوم في السماء كي ترانا وعندما ابتسمت حبيبتي ضحكت الغيوم وتهاطلت . . . .

وفجأة .

* * *

يرتطم جسم صلب بقفل الباب . يندفع لسان المزلاج إلى الداخل . يهب وديع واقفاً . ينفتح الباب ويندفع منه رجلان أولهما يشهر سكيناً طويلة مدببة حادة.يغلق الرجل الثاني الباب خلفه بخفة وحرص . يهدر صوت الرجل الأول :

– « كلمة واقطع عنقك ! أين هي » ؟ .

يسقط القلم من بين أصابع وديع . ينتفض كمن أفاق من حلم . يحاول استجماع شجاعته . يصيح بصوت مرتجف :

– « ماذا تريدان ؟ ! اخرجا من البيت فوراً وإلا . . . »

يقفز الرجل الأول إلى الأمام . يهوي بسكينه على وجنة وديع اليسرى . يحاول وديع أن يصرخ لكن يد الرجل الأول تجهض الصرخة في حنجرته . يتدفق الدم بغزارة من خد وديع . يترنح . يدفعه الرجل إلى حضن كرسي الخيزران . يجأر :

– « نحن لا نمزح ! أين هي ؟ » .

تستقر عيناذي الشاربعلى قفص الكناري . يقترب منه بهدوء . يهدد . يشعل إحدى سجائره . يلتفت إلى الرجل الأول ويقول بصوت آمر بارد :

– « فتش في الداخل » .

يلتقط وديع المنشفة عن مسند الكرسي . يضغطها فوق الثلم الذي خلفته السكين . يرفع عينيه إلى وجه ذيالشارب. يتمتم بخشوع ورعب :

– « أقسم بأنها لم تأت إلى هنا ! أنا لم أكلمها في حياتي إلا اليوم . قصدي شريف والله ! أنا مستعد أن أخطبها ،

بل أن أتزوجها الآن . لاتظلمني وتظلمها ،أقبل يديك ! » .

يعود الرجل الأول حاملا سكينه الدامية . ينظر الى وديع بتشكك . يصرخ بهدوء:

«لقدرأيتها بعيني تدخل الى هنا!تظن انك قادر على قنصها من ابي السباع ياكلب ! !ابو السباع مدوخ البلد.. انت تتطاول عليه ! ! انطق!اين هربتها؟».

يطلق ذو الشارب نفساً عميقاً من سيجارته. ينظر إلى الرجل الأول فيصمت . يفتح ذو الشارب باب القفص بحرص . يخاطب وديع بصوت فولاذي مغلفبالنعومة:

«طائر جميل . انا ايضاً احب الطيور».

يمرر اصابعه الكبيرةعلىرأس الكناري . يقرب جمرة سيجارته من عينه . يزم الكناري رأسه إلى الداخل . يخرج رأسه تحت ضغط الأصابع . ينظر ذو الشارب إلى عينيه الصغيرتين البراقتين. «طائر بديع اليس كذلك؟»

يغرز ذو الشارب عينيه الباردتين في عيني وديع يقرب جمرة سيجارته من عيني الكناري . يغمض الكناري عينيه . تبيض العين الأولى . ترتعد اوصال وديع . ينسى جرحه النازف . يحس بقوة هائلة تسري فبه . يعض اصابع الرجل الأول المطبقة على فمه . تنعتق

الصرخة : «مجرمون !! مجرمون !! مجـ...».

تطبق يد الرجل الأول على فمه من جديد . يقذف ذو الشارب الكناري المحروق العينين الى اعلى. تبدأ عضلات فكه رقصها الجنوني المتصاعد . تتشنج شفتاه بأفعوانية مقرفة . يدفع يده الى الخلف فتتكشف عن موس حلاقة ناصع النصل . يتقدم نحو وديع يخاطبه بنفس الصوت الجليدي:

ــ «والآن ، قل لي اين تلك العاهرة؟» .

وبسرعة البرق يرسم بحد الموس خطاً ابيض على خد وديع الأيمن سرعان ما يغص بالدماء . يخر وديع بين يدي ذي الشارب . يتمتم بوهن :

«اقسم برأس امي ! اقسم ... بديعة لم تأت الى هنا

يغمغم ذو الشارب:

يرد صاحب السكين الكبيرة بانفعال :

«العاهرة . انها تغير اسمها كل دقيقة! لقد خبأها بينما كنت اخابركم!»

تعود التكشيرة الوحشية إلى وجه ذي الشارب. يطبق بموس الحلاقة على عنق وديع المضرج بالدم . يزعق بحدة مفاجئة :

«انطق اين هي؟»

ينتفض وديع بشكل متتابع.يحكم ذو الشارب قبضته على ياقة وديع . يضغط بالموس على عنقه . يغيب وديع عن الوعي . يتهدل جسده فينغرس الموس في عنقه . تجحظ عيناه. يهدر ذو الشارب :

«قل اين هي ياكلب؟!»

يهز ودع بكل قواه. ينغرس الموس في عنق وديع اكثر واكثر. تتصاعد منه حشرجة جافة. يصرخ الرجل الأول برعب:

«ذبحته!»

يشلح ذو الشارب وديع فوق الأرض فتتسع دائرة الدم حول جسده وتخفت حشرجاته الى أن يسود الصمت.

* * *

يهمس الرجل الأول بصوت مرتجف:

«قتلته لقد حذرك سيادته من القتل!» .

يزعق ذو الشارب ملدوغاً :

«سيادته ! قلت لك أن لاتذكره أمامي ،الكلب.إنه يمتصنا

دون مقابل قل لي ، ماذا فعل لنا منذ حادثة سلهب؟! لاشيْ ! لكنه لم يتوقف عن البلع ! »

تصطك اسنان الرجل الأول يهمس بصوت متقط أجش مشيراً إلى وديع :

ـ«لكنك قتلته ! »

يرد ذو الشارب بهدوء مفتعل:

ـ«الحيوان لقد اغضبني ! »

يهمس الرجل الأول:

ـ«لكن ، ماذا سنقول لسيادته الآن؟...»

يمسح ذو الشارب الدم عن موس الحلاقة بالورقة التي كتب عليها وديع كلماته الأخيرة. يتمتم بهدوء حازم: «لسوف اجد تلك العاهرة ولو كانت في الواق الواق!».

يمر فوق جثة وديع دونما اكتراث. يقف خلف الباب. يصيخ السمع قليلا . يفتح الباب بحرص ، يهمس:
ـ«لاحد هناك : هيا بنا».

* بيروت – القاهرة –
بغداد – الخرطوم – الدار
البيضاء – صنعاء – المدينة
المنورة ....الخ كانون الأول ١٩٧٣

سيف يعبر المدينة

«لافرق بين الوحل والغبار .. لافرق ».

استلقى على لحاف مفروش على ارض الغرفة القذرة. عد خشبات السقف مرة اخرى . جرجر عينيه فوق باب التوتياء . ارتطمت عيناه بعين «السلطعون» ذي الرأسين الرابض على باب وكره الموحل عند الخابية . رماه بفردة حذائه. أطلق شتيمه مكتومة. نظر إلى صورة يوري غاغارين المثبتة الى جدار الغرفة الطيني .

(يوري غاغارين . ستبقى ذكراك الى الأبد) صفق الباب خلفه.

« الليل طويل وحبيبتي حكاية ، زهرة ثلج تذوب في كف الليل».

كان سيف يجر قريتهخلفه في احد شوارع دمشق العريضة والليل يزداد عمقاً ووحشة.

«كل ماتمناه أن يصير الخبز مجانياً والحب الزامياً عندها ستكون عظامي سعيدة حتّى لو تغوط ابناء قريتنا على شاهدة قبري كل مساء».

اقترب من سيارة «بويك» سوداء تقف امام كراج نصف مغلق على رأس شارع فرعي هادئ.

– « أين تقيم الآن ؟ »

– « عند صديق . هناك » .

– « هناك ! أين ؟! » .

– « هناك في احد البساتين .. عند مدخل المدينة »

– « مدخل المدينة ! غريب ! خذ واملأ الاستمارة بنفسك ! »

شمل المحيط بنظرة عجلى تجمدت عيناه عند نافذة حمراء . تأرجح ظل امرأة وراء الزجاج الشاف. التهبت عيناه . انطفأ الضوء وساد صمت غريب:

« اللعنة ! هذه المدينة خشخاشة كبيرة اختنقت ديدانها نوماً» .

اندلع في عينيه قصر كبير من الجماجم. تدحرجت واحدة منها محدثة قعقعة حادة. تدحرجت . استقرت

بين قدميه . انفتح فمها العظمي . خرج منه صوت أجش :

«سيف . ألا تعرفني؟أنا أبوك! أنا المغدور!».

ابيض وجه سيف. اندلقت عيناه من محجريهما. نفض رأسه الأشعث . انحل خيط الرعب من بين تغضنات وجهه ببطء. رصد محيطه الأنيق مرة اخرى. فك ازرار سرواله «الكاكي» ومع تكسر خيط السائل الأصفر المجدول على غطاء المحرك انطلق سيف يعدو في زواريب قريته محملا بالكرات والسلبين والبطم وارتفع به «الخيرقان»(١) يشق طيات الهواء بجسده العملاق ، وبينما كانت الأرض تصغر مبتعدة شيئاً فشيئاً أغمض سيف عينيه وغنى :

(هب الهوى على بستاني وأنا زغير
كسر رووس أغصاني وأنا زغير
ياربي لاتموتني وأنا زغير
ولا تحرمني شمات الهوى).

تراجع أمام السائل المزبد. نفض جذعه بجذل. لمح وجهه في مرآة السيارة . توقف لحظة كمن يقرر شيئاً ثم دفع

---

(١) العفريت خادم سيف بن ذي يزن .

المرآة بعزم الى الوراء فتحررت من هيكل السيارة محدثة قعقعة ضاعفها صمت المدينة.لعلعت صافرة. هدر صوت «قف ! قف والا اطلقت الرصاص!»

كان الشارع كجثة سوداء شاسعة تخرشها النفايات تندفع بحرية مع ريح الفجر القارصة . كان سيف يركض برعب وحارس الليل البدين يهرول خلفه محدثاً ما استطاع من ضجيج منتضياً مسدسه.

أحس باشياء غريبة تهوم حوله. عيون! عيون من امامه! من خلفه! من كل الاتجاهات! من احجار الرصيف .. من شقوق الأبنية. عيون .عيونسوداء.. زرقاء.. خضراء.. عسلية.. شهلاء.. بنية..قاتمة..مشعة.. عيون تحملق ..تهدد.. تحنو..تبكي..ترسل اشعة خفية مخدرة . تقفز فوق الاسفلت كالضفادع.. تحاصره سيلا حياً دبقاً محملقاً . ترطمه . ينسدح . ينهض . يركض في مكانه . يترنح . يوشك أن يهوي . يترنح.. . لكن الأرض انشقت أمامه عن نهر ما أن قفز إليه حتّى استشعر دفء عنصره فنام .

★ ★ ★

حدقت الأم في وجه زوجها النائم ، همست .

– « سلمان . سلمان . ! هل نمت ؟ والله لم يجئني النوم ... قلبي يحدثني أن ابننا سيف لم يتعش الليلة أيضاً . إنه غريب في الشام لا أحد له ! »

وتلاطمت خشبات السقف التى قرمزها الدخان في عيني الأم ثم تكسرت على خديها الذابلين دموعاً دافئة .

– « قلت لك ألف مرة : بع العنزة وابعث له ... لكنك لم تسمع مني ! والله لم يتعش ابني الليلة أيضاً ... أنا قلبي دليلي . » .

★ ★ ★

(أخي سيف .

لاأستطيع أن أحتمل أكثر . حياتنا صارت أقذر من روث الخنازير . أرجو منك مغادرة الغرفة صباح الغد فالمكان ضيق والإمتحانات ....)

سقطت دمعة كبيرة على كلمة « أكثر » فتداخلت حروفها وانتفضت هضبة صغيرة انحدر عن قمتها سيل ضحل شفاف الزرقة توزع في دائرة صغيرة تشبه عين أمه :

– « ماذا أوصيك يا ولدي . خذ حذرك من أولاد الحنى . لاتترك أحداً يضحك عليك . عندماتصل الشام اسأل عن

بيت العريف أبو لميا وهم يدلونك. كتبك في الكرتونة.. في الكيس خمس بيضات وستة أرغفة زوادة للطريق . انتبه لنفسك يا ولدي . وليكن قرشك كالرصاصة .... »

★ ★ ★

– « ياأخ . . مرحباً . هل تعرف بيت العريف أبو لميا ؟»

– « أبو ماذا ؟ ! هه ! وهل هو أسعد باشا العظم حتى أعرف بيته ؟ ! !

قال الخيرقان وهو يشق صدر غيمة سوداء :

– « لماذا يركض الناس هنا كالمجانين ياسيدي ؟ ! »

هز سيف رأسه المثقل بالسفر وقال :

– « المدينة ياصديقي سوق كبير والأسواق كالرمال المتحركة إن لم يركض المرء سقط في معدتها الفولاذية وصار جزءاً من عملية البلع الكبيرة . لهذا يولد بعض الأطفال هنا وهم يركضون » .

– « غريب أمركم أيها البشر ! »

★ ★ ★

دوى صوت :

– « في هذا الشارع ... اذهب من هنا وأنت معي ! إذا لم يتوقف بعد أول إنذار أطلق النار دون الركبة . هيا ! »

انسل سيف إلى دغل أخر من الأبنية السامقة، قفز إلى الظل والدم ينزف من بين شفتيه المطبقتين بحزم. تذكر صديقه ابراهيم :

– « لست أدري كيف تفهم العمل السياسي ! أيام البهلوانيات والبطولات الفردية راحت ولن تعود ! . كلنا طفرانون مثلك لكن يجب علينا أن ننظم عملنا . أم أنك تريدنا أن نناطح الحيطان ! ! ! تذكر ما قلته لك . إذا تابعت على هذا الطريق فلسوف يفضي بك إلى السجن . ولن تسجن لأنك ثوري بل لأنك لص ! » .

رطمه جسم صلد في خاصرته . استدار مرتعداً فرأى أقداماً تتضخم مقتربة نحوه . أقدام ! أيد ! أذان ! أقدام أيد ! أذان ! تبرعم ! تكبر بسرعة . . . . على عواميد الكهرباء . على براميل القمامة .

أيد وأقدام تسوره . تصفعه . تركله . ترضه .

تخضه بقسوة شيئية . وأذان جسيمة تضخم إيقاع الأقدام والأيدي المنهمرة على جسده النحيل ... المتلوي ... المتكور .. الهامد .



على شاطئ نهر أحمر كان سيف مكبلا بالسلاسل ، وفي فمه خرقه سوداء قذرة وسط أناس لاملامح لهم . قالت شابة عارية تجلس على كرسي من لحم .

– « ماسمك ؟ »

رد رجل يرتدي قفطاناً أسود وقبعة مضحكة

– « اسمه سيف يا سيدتي »

– « من أين جئت ؟ »

– « يقال بأنه لا يجيء ياسيدتي بل ينبع من الأرض » .

– « ما عملك ؟ ! »

– « يقال بأنه ملك ! »

– « ملك ماذا ؟ »

– « يقال بأنه ملك العصافير والطرقات يا سيدتي » .

– « العصافير ! ! وما هي العصافير ؟! .

– « يقال بأن العصافير نوع من الجواسيس التي بدأت تتسلل عبر حدودنا ياسيدتي » .

– « لمن بعت نظارة تحديد الرؤية التي أعطوك إياها على بوابة المدينة ؟ »

– « يقال بأنه قد كسرها يا سيدتي ويقال أيضاً .... »

– « إذن ! »

أشارت الصبية بإبهامها إلى الأسفل ، ودوت طبول الإعدام . رمقته الجلادة العجوز بنظرة شبقة . تكسرت أنفاسها الحامضة

على عنقه الغض. حاول التملص . سمرته أيد فولاذية إلى الأرض ، حشرته في كيس خيش . عبأت الكيس با لجير الخام وأخاطته .

وبينما كان سيف يحدق في الأفق جعلت الأنشوطة حول عنقه وركلته قدم موتوره فسقط في نهر الدم ومات شنقاً وغرقاً وحرقاً !

★ ★ ★

بين الغمام كان سيف ، يحلق بسهولة دون عون الحرقان ، وكان الخيرقان يهوم حوله بصمت حزين .

— « لطالما عبرت عن توقك للإنعتاق يا خيرقان امض أنت حر » .

دفن الخيرقان وجهه في غابة صدره وحرك شفتيه الكبيرتين :

— « أشد ما يحيرني يا سيدي هذه الأنهار تتدفق دماً بدلا من الماء ! ! »

همس سيف بصوت عميق :

— « في مثل هذه الأرض يا خيرقان ، حيث الأيدي تعتقل والأذان تتجسس وتتضخّم والأقدام تركل والعيون تراقب لابد أن يكون الغذاء هو الدم ! » .

★ ★ ★

قال الشرطي بجفاف :

– « اتبعني ! »

اجتازا عدة ممرات . لم يسترعيا انتباه أحد . صرخ أحد المساجين من خلف قضبان زنزانته . زجره العريف . وصلا غرفة المقابلة . قال العريف البدين با زدراء :

– « ادخل . هناك زائر يريدك » .

واجه سيف صديقه ابراهيم. كانا قد تخاصما منذ سنة تقريباً وانقطعا عن بعضهما . تقدم ابراهيم فارداً ذراعيه مبتسماً بود . تردد سيف قليلا . ثم عانق ابراهيم وأخذ ينشج بصمت .

دمشق ــ شباط ١٩٧٤

*

هم يبتسمون أيضاً !

— ١ —

حينما انقلبت ألواح الساعة الكهربائيةالمشعة، ارتفعت ستائر غرفة السيد صمدي مزقزقة كخليط طيور ثرثارة. تهافتت أشعة الشمس إلى الغرفة ممزوجة بموسيقا تهادت من أزهار بخور مريم كبيرة منشورة في جوانب الغرفة.

فتح السيد صمدي عينيه قليلا فبدى له مضيق البوسفور على مرآة السقف المائلة عملاقاً أزرق تحبو فوقه الهوام الخشبية والدمى البشرية فلا يحس بها ويتابع نومه مطمئناً على مفرق القارتين كقاطع طريق مخمور. تمطى السيد صمدي في سريره الوثير الناعم وهم بتغطية رأسه طالباً للنوم لكن صوتاً أليفاً هامساً ينطق بلغة تركية ركيكة تدفق عبر مكبرات الصوت المخفية في الأزهار.

—« صباح الخير يا حبيبي إنها العاشرة ».
رد التحية مبتسماً بتذمر :

– « صباح الخير يا حبيبتي . كيف الحال في برلين ؟ »

تمعن في صورتها التي تطل عبر شاشة الهاتف التلفزيوني وقال في سره : « يجب أن أكون في غاية السعادة مع زوجة كهذه » .

عاد الصوت تصاحبه نظرة عتاب وتأنيب :

– « انهض يا كسول كل شيء جاهز . أمرت الإنسان الآلي بتجهيز الفطور . حرارة الحليب خمس وخمسون درجة . لا تحرق شفتيك ! »

تأفف السيد صمدي مد يده إلى لوحة أزرار على يسار السرير تبرز منها رؤس حيوانات صغيرة ملونة .

ضغط على رأس فيل أبيض فانشق الجدار المقابل عن إنسان آلي دلف إلى الغرفة يدفع صينية فضية عليها أواني خزفية يتصاعد البخار من بعضها .

ارتفع الربع الأخير من السرير دافعاً ظهر السيد صمدي إلى الأمام برفق . مد يده إل السخانة الكهربائية رفع منها قطعة توست مقمرة وغطاها بقشرة من الزبدة ثم بطبقة من مربى الكرز وضعها على محرمة بيضاء وضغط على رأس أفعى في مجموعة الأزرار فا نفتحت كوة خلفه امتدت منها ذراع مفصلية بخوذة صفراء احتوت رأس السيد صمدي

وعندما سمع السيد صمدي أزيز الحوذة تنفس با رتياح واستدار ليتابع طعام الإفطار .

عندما فرغ السيد صمدي من افطاره ضغط على زر احمر في اللوحة فعادت الصينية إلى مكانها وارتفعت الذراع بنفس الميكانيكية الرقيقة الصامتة بعد أن سرحت شعر السيد صمدي باتقان ضغط السيد صمدي على رأس كركدن فاندفع النصف الأول من السرير واختفى في الجدار كاشفاً عن سجادة حمراء ما أن وطأها السيد صمدي حتى حملته برفق عبر الجدران التى تنشق أمامه إلى الحمام حيث تتداخل الأضواء الملونة مبدعة أشكالا هندسية ساحرة على أنغام الموسيقا المرهفة. وقبل أن تنفلت الجدران استدار باتجاه الانسان الآلي وقال :

— « احجز لي بطاقة بالقطار الذري . يجب أن أكون في برلين هذا المساء . »

— ٢ —

لغط مفتاح ثقيل في شدق الباب العلوي ، تدحرجت الخطوات الثقيلة على الدرج ، ارتطم مفتاح في قفل القاووش ، تلمس الثقب ، اهتدى ، طق .. طق .. طق . . فتح الباب. أغلق بعنف. صمت. . . .اقتربت الخطوات ..

اقتربت . وعندما استقرت انسحقت عيون المساجين على ثقوب الزنزانات لترى على من رست الدائرة .

فتحت نافذة المراقبة . تكسر ضوء المصباح الأصفر على الجدران الرطبة الخشنة . دوى صوت الرجل :

– « رقم ١١٣ ! »

– «..............»

– « يا رقم ١١٣ أنت يا ..»

انتفض السيد صمدي أجاب بلهجة نعسى .

– « حاضر سيدي .. يالله .. هه .. حاضر »

– « انهض يا زفت ! »

هب السيد صمدي واقفاً بينما كان المفتاح يسحب لسان القفل ، فتح الباب وصافح ضوء المصباح وجه صمدي الفاقع الصفار وتجاوزه إلى الجدران ، فهرولت الجرذان البدينة نحو فتحة المرحاض بانتظار انقشاع الضوء كي تواصل تنقيبها عن بقايا الطعام تحت رأس السيد صمدي .

– « اتبعني ! »

حدق السيد صمدي في وجه الرجل وما أن تبين ملامحه حتى همس بهلع :

– « تحقيق ؟ ! »

انطلق الرجل يضرب الأرض الإسمنتية بحذائه الثقيل . تبعه السيد صمدي ككلب عجوز . صعد الدرج ، انحرفا إلى الممر المفضي إلى البهو حيث غرفة التحقيق . عند نهاية البهو ، قبل الوصول ، أدرك السيد صمدي من خلال أوراق اللوز المهترئة أن الصيف قد انتهى وأن الخريف في طريقه إلى النهاية .

أنزل يده من فوق عينيه الحمراوين ورفع رأسه كي يقرأ السماء ، لكن دفعة عنيفة ألقت به على أرض غرفة التحقيق . رفع رأسه . رطمته نظرة احتقار من عيني نفس الرجل الجالس على نفس الكرسي خلف نفس المكتب العريض بجوار مدفئة حطب عملاقة تثرثر لهباً . تدلت شفة صمدي من تحت شاربه الأشعث فبدت زرقاء رقيقة كشفة طفل حديث الولادة .

حك الرجل السيد ذقنه بخنصره وأطلق نفساً من سيجارته :

–«ما أسمك؟»

بدأت كرة الآلة الكاتبة تدحرجها على الورق.

–«صمدي حكمت ياسيدي».

–«ماذا تعمل ياصفدي؟».

-«صمدي ياسيدي..صمدي ».

-«لافرق . ماذا تعمل؟» .

-«أستاذاً مساعداً في كلية الإلكترون في جامعة استنبول ياسيدي ».

-«جميل .. منذ متى؟» .

-«شهران فقط ياسيدي قبل مجيئي الى هنا» .

-«ومنذ وصولك بدأت ؟! لا ..نشيط!»

-«ماذا ياسيدي؟»

-«سيدك ؟! يبدو انكم تصبحون كلاباً بعد اول سوط ...طيب. متزوج؟»

-«نعم ياسيدي» .

-«مااسم زوجتك؟»

-«كاترين هانز كونراد».

-«آ...أجنبية؟! »

-«ألمانية يا سيدي».

-«كل هذا غير مهم.. فلندخل في لب الموضوع..اعرض له الصور مرة اخرى»

برز خلف السيد صمدي رجل يرتدي سترة سوداء. أسدل الستائر ثم جلس إلى طاولة عليها فانوس سحري. انطفأ الضوء.

–«انظر جيداً».

ظهرت على الشاشة صورة جانبية مهزوزة عليها ختم لشاب طويل الشعر .. صورة امامية واضحة وصورة جانبية أخرى لنفس الشاب . صورة لمجموعة شباب يسيرون في شارع في اعلاها سهم يشير الى رأس الشخص الشاب . صورة أخرى واضحة لمجموعة شباب يهتفون على شرفة كسر زجاجها علقت عليها لافتة بيضوية مكتوب عليها بالانكليزية (سفارة الولايات المتحدة الأمريكية) وسهم يشير الى رأس الشاب نفسه. رفعت الستائر وانيرت الغرفة .

–«إنه رفيقك. كان معك في نفس الجامعة. هل تعرفه؟

–«اعرفه ياسيدي ».

«غاية في الجودة ! قل لي الآن، ماذا تعرف عن القنبلة الموقوتة التي وضعت تحت مدخل السفارة الأمريكية في اول ايار الماضي؟» .

–«لا أعرف اي شيء ياسيدي» .

–«سيد صفدي فكر قليلا ان غضبي يكلفك كثيراً ! كن عاقلا واعترف . لامجال للنكران . لقد وجدنا في بيتك بطاقة عضوية بمنظمة تحرير فلسطين وكتباً كثيرة ممنوعة . وأنا لااشك بأنك من جيش التحرير التركي فأرحنا»

«سيدي اقسم برأس طفلي بأنني كنت في برلين طوال تلك الفترة !» .

–«نفس الكلام . لم يستفد من الدرس . سأريك ايها الكلب ! جربوا الفئران المكسيكية ! »

–«سيدي ! أرجوك ! لا! لا! لا! ! »

لكن السيد لا يسمع بل يغادر الغرفة بخطوات آمرة كي يقرأ تقارير اخوته في اسرائيل ، البرازيل ، بوليفيا ، بورتوريكو ، جنوب كوريا ، موزامبيق ، اريتريا ، ايرلنده ، ايران ، زمبابوي ، روديسيا ، جنوب افريقيا ، تشيلي و...و... وهذا كثير ! كثير !

–«فك ازرار سرواله ! »

..وعري السيد صمدي .. دفعوه للجلوس في هيكل خشبي . قاوم .. أطبقت على كتفيه أربعة أيد ضخمة طوته بين اضلاع الهيكل بحيث صارت ذقنه على ركبتيه . أحس

بحماوة يد انسانية.. أحس بأنفاس ساخنة تتكسر على اليتيه.. ارتعدت اوصاله. انفتحت عيناه الحمراوان الى اقصاهما .. وعندما أحس بالفأر المكسيكي الدقيق الأملس يغرز مخالبه في قولونه صاعداً الى امعائه طافت من فوق جدران السجن الشائكة الشاهقة صرخة مروعة تلاشت في هدير السيارات الملونة التي كانت تنهب شارع البوسفور متجاوزة قبابه البديعة ومآذنه السامقة.

—٣—

— « سيدي ! يقول لك الجنرال « شويك شافر » إنه يريد نتيجة التحقيق حالا . فقد اختطف السفير الأمريكي وفجرت السفارة.»

— « طيب ،ماذا؟ السفير ؟ السفلة ؟ ! أنعشوه فوراً ! »

هز السيد صمدي رأسه المبلل.فتح عينيه الزائغتين فا نهارتا تحت نظرات الرجل السيد .

— « أنا لاأمزح ! رأيت ! تكلم ! قل أين صديقك ! »

كشر السيد صمدي عن أسنانه.. كور جسده المرتجف انتفض كأفعى شق جوفها بسكين . تشنجت عضلات وجهه الدقيق الشاحب :

-«قل من وضع القنبلة؟ أين يختبىء؟ ! من صنعها ؟ !
ارتج جسده ، خار كالثور الذبيح .
— « أنا صنعتها ! أنا وضعتها ! أنا فجرتها ! أنا ..
أنا ... أنا .. أنا ... أنا ... !! ! ! !!
— « أين يختبؤون ؟ أين هم رفاقك ؟ »
« أنا ! أنا ! أنا ! أنا ! أنا !
— « للمرة الأخيرة . أين هم رفاقك أين يختبؤون ؟ »
« أنا ! أنا ! أنا ! أنا ! أنا ! أنا ! أنا ! أنا !
— « ابن العاهرة ! افعلوا به ! »
أذناب.. أيد . . .أذناب . .. وخوخة . . أذناب .
أيد . .
— «ويلي ي ي ي ي ! ! ! »
أيد..أيد .. .أنفاس . . وخوخة أيد. واحد . إثنان. .
ثلاثة . . أربعة . . خمسة . . أزرق .. أزرق .. أسود ..
أسود . . أسـ . .أسـ .. أسـ ..
— « أخ يا أمي ! ! »
في تلك اللحظة فرك الرجل المرتدي السواد يديه. تناول كتاب جغرافيا مرمي في زاوية الغرفة . اقتطع خارطة العالم وسار نحو المرحاض يصفر بمرح .

— ٤ —

— « رقم ١١٣ »
— « حا . . حاضر سيدي »
— « قم ! »

نهض السيد صمدي وهو يرتعش . . رفع سرواله الذي يكبل ساقيه . خرج محني الرأس وتبع أقدام الرجل . وصلا نهاية البهو حيث غرفة التحقيق . توقف صمدي بآلية وتابع الرجل سيره باتجاه غرفة المدير . وعندما التفت إلى الخلف فوجىء إذ لم يجد السيد صمدي فعاد جرياً من حيث جاء . وجد السيد صمدي منتظراً أمام باب غرفة التحقيق . صرخ به :

— « يا ابن الـ .. محترمة ! ألم أقل لك اتبعني ! »
— « هاه .. إيه .. إيه . أمرك سيدي . هه » .

— ٥ —

في غرفة مدير السجن دعي السيد صمدي للجلوس لأول مرة فأطاع .

سلمت إليه محفظته ورباطات حذائه وولاعته . وضعها في جيبه دون اهتمام . ربت مدير السجن بود على كتف السيد صمدي فأجفل . قال مدير السجن مخاطباً

السيد صمدي بلهجة صديقة وهو يشيعه إلى الباب :

— « **سيد صمدي . لابأس .. لابأس .. نحن أسفون ..**
لقد أمرني رؤسائي بالإعتذار منك . نحن أسفون جداً أرجو أنتقبل اعتذارنا ! أعدك بأننا سنعاقب من كان سبب الخطأ . لكن . . . أرجو أن تقول لمن يسألك أنك كنت في السينما أو أي مكان آخر . هذا لصالحك !

أغلق الباب الحديدي خلف السيد صمدي .

وجد نفسه في شارع فرعي صامت . كان الليل مهيمناً فلم يستقبل السيد صمدي إلا الكلاب والقطط وحارس الليل .

أدى التحية العسكرية عندما حاذى الحارس وعندما واجه السماء أطلق ضحكة هستريائية طويلة وأخذ يوخوخ ويتعصر . سقط وبينما كان أذان الفجر يرتفع من مآذن عديدة كان صمدي يتدحرج بسرعة متزايدة في الشارع المنحدر .

دمشق– آذار ١٩٧٤



العريف غضبان

١ ـ افادات

الإفادة الأولى :

(أنا لاأخاف أحداً الا الله ! فعندما دفعني ، تركت الباص لحال سبيله وجدلت رقبته على قبضتي حتى تدحرجت عيناه على خديه ، حاول صفعي ابن الديوث ! ناولته لكزة في خاصرته . . انسدح كالمطيسة . . حينها حن قلبي عليه ، لكن ابن العاطلة هجم علي مرة أخرى وكأنه لم يعرف من أنا ، أي والله ، تبلت الشارع بدمه ثم أخذته الى الشعبة وبقيت أوسع مداركه حتى مطلع الفجر !)

. العريف غضبان

الإفادة الرابعة :

(دعوهما . . تاجر وعاهرة سيتفقان في النهاية !)

. العريف الغضبان

الإفادة السابعة :

(كان أبي يضربني دائماً . . مرة طوق عنقي بالحبل وقادني كالبهيمة الى الحقل . . لهذا أحببت هذا العمل وهذا المسدس . لكم أتمتع برؤية هؤلاء الأجلاف يرتعدون أمامي كالفئران) .

. العريف غضبان

الإفادة التاسعة :

(أنا أحسدهم ! ؟ صحيح أن الواحد منهم يمشي مع كل امرأة تفلح البدن ولكنهم مجرد حشرات كافرة بنظري . لقد قال لي المساعد أبو صطيف أنهم يفرغون جثث الأطفال من مراحيض الجامعة بالبراميل ! سترك يارب !)

. العريف غضبان

٢ ـ قصة

خفت لهاث الشارع وتعالى انعزاف المطر على الإسفلت اللماع وهجم فرس الليل الشتوي على أزقة المدينة المتعانقة فازدادت انكماشاً وتظاهرت بأنها تحلم .

ساعات طويلة مضت والعريف غضبان ما يزال

متشبثاً بطاولته في حانة (الأصدقاء) يكرع أقداح العرق المشنن وينتظر شخصاً ما يشاركه منضدته ، أي شخص . . لكن أحداً لم يبد رغبته في الإنضمام اليه على الرغم من الإزدحام الشديد خلال ساعات المساء الأولى .

صرخ :

— « بطحة ثانية يا ريس » .

لم يجبه أحد . كرع كأس العرق دفعة واحدة :

(الأوغاد جميعهم يعرفونني . أقرأ هذا في عيونهم . . في أصواتهم الهامسة اللعينة ! لماذا يحدجونني بهذه النظرات الخائفة ؟ ما الذي يخيفهم ؟ ! لابد أنهم يشعرون بالمسرة لأن وردة هجرتني ، لسوف أعرف من أخبرها بأمري وعندها . . .)

أجال نظرة بين الزبائن القلة المنهمكين بمناقشاتهم السرية على الطاولات الأخرى . ارتطمت عيناه بعيني واحد منهم . . هرب الرجل بعينيه . . زمجر غضبان :

(يعتقدون أنني حيوان . أجل انهم يعتقدون ذلك . لسوف أريهم !)

تناول مسدسه من تحت سترته . صوبه الى صلعة

صاحب الحانة ، أطلق . . أحس بيده تصبح ثقيلة كجبل صغير ، تحول مسدسه الى بندقية رشاشة . جأر :

(عا . . ا . . ا. . ا. . ا. . ا)

ضغط على الزناد مرة أخرى . امتلأ الجو بالضباب اللازوردي الشفيف وتدفق فوق الأرض القذرة نهر دم أزرق.

انطلقت ضحكة صاخبة عن الطاولة اليمنى ، رفع غضبان رأسه المثقل . صرخ من جديد :

— « قلنا بطحة ثانية ! »

تهادى اليه صوت صاحب الحانة المتعب ممزوجاً بهمسات الزبائن :

— « آسفون يا أستاذ . سنغلق بعد لحظات . »

خبز كأس العرق الفارغ على الطاولة ، أحس بخلاياه تسقط على الكرسي . ترنح قليلاً . تحسس ما سورة مسدسه كما لو أنه يطلب العون . قفز وجه وردة لى مخيلته :

— « أنا مستعدة أن أتبع قلبي الى آخر الدنيا . . صحيح نحن فقيران ، لكن صديقتنا الحياة غنية وستساعدنا ».

— « ان كان لي في قلبك نقطة دم يا غضبان فلا

تأت الى هنا ولاتحاول ايذاءزميلاتيفهنلسن مسؤولات عما جرى . . لكل منا طريقه يا غضبان ! » .

أحس برغبة في أن ينقض على أحد الجالسين . أن يبكي أمامه . أن يخبره بفجيعته . . وأن يبوح له بآلامه الكبيرة .

كانت عيناه مغرورقتان بالدموع عندما دفع كرسيه الى الوراء وانفلت من باب الحانة مشيعاً بالهواء الفاسد . لفحته رياح كانون القارسة النقية وأعاد اليه المطر المنهمر بعض وعيه فتلفع بمعطفه السميك ومضى في الشارع المقفر محني الرأس .

قرع رأسه ميزاب بيت هرم . اندلق الماء العكر على وجهه . . تسلل تحت معطفه طافئاً ذرات الدفء في عنقه . اندفع مترنحاً الى الأمام . قرعه ميزاب آخر. تذكر عادل :

(أخي في الرضاع كسرت يده دون أن أدري .. مطمور بالفقر . ابن الـ . . منذ وصوله الى الشام يشترك في المظاهرات . ماذا سيقولون عني في القرية ؟ ! أين سأخبيء وجهي ؟ !)

أمتزجت دموعه بماء المطر والميازيب لمح أمه تقترب منه دون أن تخاطبه . ناداها . بصقت :

— « يا ضياع حليبي فيك يا خسيس ! » .

انتفخت البصقة بسرعة هائلة . . تدحرجت نحوه تنفث دخاناً ملوناً . ركلها . . نفثت غيمة دخان لافح . انكمشت . . بدأت تنمو متدحرجة نحوه بسرعة متزايدة ، ركض أمامها . تعثر . سقط . استدار .لمح البصقة تتبعه . لامست نارها قدمه . التقط خشبة متشعبة . اندفع باتجاه البصقة وأهوى بها من فوق انهدام شاهق . أطلق تنهدة ارتياح لكنه عندما فتح عينيه رأى جثة أمه مهشمة فوق السفح !

(ويلي ! !)

مرت به سيارة أمريكية مسرعة . قفز الماء المطعون وانحدرمن على معطفه . اختفت السيارة في شارع فرعي. ازداد نشيج العريف غضبان . قرعه ميزاب آخر . لمح عصفوراً مبللاً مكوراً تحت نافذة مطفأة . اقترب منه . لم يتحرك . تناوله في راحة كفه . مرر أصابعه المرتعشة على رأسه المبلل :

— « أنا أعبدك يا وردة » .

زم العصفور عنقه . فرت وردة من بين ذراعيه. أحس أن سداً في قلبه قد انهار وأن دماً حبيساً قد اندفع في شرايينه وغمر جسده باللهب . قرعه ميزاب آخر. أطل وجه وردة من العتمة . . ابتسمت عيناه . صرخ والده :

– « لاينقصنا الا هذه المصيبة ، بنت مدينة ؟ ! كيف ستعيش هنا ؟ ! كأنني أراها . » يقلد صوت فتاة المدينة « والله أنا غير معتادة على حمل الحطب ولاعلى الحصاد » يعود صوته الى خشونته . « . . لا ، سوف نضعك أنت و ياها أمامنا . . نتغزل بكما ونزرع على خرائكما فجلاً ! هل تريد أن تفضحنا يا ملعون الوالدين ؟ ! ألم يتوظف في المدينة الاك ؟ ! »

أضرم خفقان قلب العصفور المبلل طفولة القرية في قلب غضبان . ود لو كان في قريته « يعرجل » سطح بيتهم الترابي ويأكل التين المجفف حول الثفية ويستمع لحكايا حمود العاصي الممزوجة بالتبغ والمطر وثرثرة النار . شعر برغبة ملحة في التحدث إلى شخص ما . صرخ بأعلى صوته في الشارع المقفر :

– « أريد أن أكون صديقكم ! لاتخافوا ! أحبكم » .

قاطعه الرعد وانجدلت خيوط المطر الثخينة شلالا

يقرع المدينة . سطع البرق ودوى الرعد مرة أخرى . وانطفأت مصابيح الشوارع . مضى العريف غضبان يتخبط في العتم مبللاً من رأسه حتى أخمص قدميه ويده اليمنى حانية على العصفور الصغير القابع مطمئناً في قعر جيب معطفه السميك كما لو أنه قريته الصغيرة المشلوحة في مكان ما بين الجبال الموحشة .

وصل الشارع الرئيسي . لمح شخصاً قادماً باتجاهه ، وما إن حاذاه الشخص حتى استوقفه قائلاً بطيبة :

— « مساء الخير يا أخ » .

رد الشاب التحية دون أن يتوقف أو أن يخفف من سرعته .

— « مهلاً يا أخ . كيف الحال ؟ »

قال الشاب باستغراب :

— « أهلاً ! »

— « هل تسمح بالقدوم معي ؟ »

— « نعم ؟ ! ولماذا ؟ ! »

— « أريدك في أمر هام » .

كان المطر يهطل بغزارة شديدة وكان الشاب يوزع

نظراته المشدوهة بين الشارع المقفر تماماً ووجه العريف غضبان الغارق بالمطر .

قال غضبان بصوت حاول قصارى جهده أن يكون لطيفاً :

— « أنا لاأعرفك حقاً . . لكنني بحاجة إليك . سنتحدث قليلاً ، ثم يمكنك أن تذهب .

استشف الشاب ضعف العريف غضبان . . صرخ في وجهه :

— « لكنني أستطيع الذهاب الآن يا أخ ! من أنت ؟ وكيف تسمح لنفسك مخاطبتي بهذه الطريقة غير اللائقة؟! »

— « لاتصرخ يا أخ . عيب ! »

— « سوف أصرخ . . أنت مجنون حتماً ! »

استعاد العريف غضبان لهجته الآمرة :

— « لكنك ستذهب معي شئت أم أبيت ! »

— « ومن سيجبرني على ذلك ؟ ! »

— « أنت موقوف . تفضل معي ! »

دفع العريف غضبان يده أمام عيني الشاب ببطاقة ما أن ميزها حتى اجتاحه ارتباك فظيع . همس مرتاعاً :

ـ « والله لاعلاقة لي بالسياسة . أنا لم أوزع أي شيء . . قسماً ! أنا طالب . . طالب آداب . . كنت سهراناً عند أحد أصدقائي . . يمكنك أن تفتشني . . . تفضل . . هاه . . ليس لدي أي شيء ، كما ترى . . » .

همس العريف غضبان بلهجة وادعة :

ـ « سوف تذهب معي . . المكان قريب » .

دخلا الغرفة بصمت . الغرفة ضيقة جداً ، رطبة جداً وقذرة جداً .

كانا مبللين تماماً وكان صوت المطر خاشعاً يغلف المدينة بصلاة وحشية . قال العريف غضبان وهو يلقي بمعطفه على السرير :

ـ « اخلع معطفك . سوف أشعل (البابور) وأعد لك قدحاً من الشاي » .

حملق الشاب في وجه غضبان بريبة رهيبة . صرخ متخذاً وضع المدافع :

ـ « اقتلني ! اقتلني لكن ما تريده محال ! محال ! ».

انتفض العريف غضبان كمن طعن في ظهره إذ اتضحت له ظنون الشاب . جأر :

— « ماذا تراني أريد منك أيها الحقير ؟ ! هل تظن أني . . ! ! أنا ! أنا غضبان بن علي العمري أفعل هذا ؟! آنا ! ! » .

امتزج صراخ غضبان ببكائه وتهالك كالمصعوق فوق معطفه المرمي على السرير .

— « لاأريد منك شيئاً . . أي شيء . . ليس لي صديق في كل هذه المدينة . . أردت أن تكون صديقي لساعة واحدة .. ساعة أبوح لك فيها بأسراري . . . لقد هجرتني حبيبتي اليوم وأنا أتمزق لأنني كسرت يد أخي في الرضاع دون أن أدري . قل لي . هل أبدو كحيوان؟ هل أنا حيوان فعلاً ؟ ! انطق ! قل ! » .

رجت البناء صاعقة هائلة فتذكر غضبان عصفور .. هب واقفاً كالمجنون . . رفع العصفور المهروس بيده وأطلق صرخة حادة طويلة :

« م . . ا . . ا . . ت ! »

وبينما كان غضبان منكباً على العصفور التقط الشاب مكنسة من وراء الباب وهوى بعصاها على رأس غضبان فسقط في زاوية الغرفة مغمياً عليه .



– « غضبان . غضبان ؟ ما بك أيها الخنزير لماذا أنت نائم على الأرض ؟ !

– « من ؟ ! احترامي سيدي »

– « السيارة تحت . ماذا جرى لك؟ هناك مظاهرة في الحي الشرقي . انهض ! »

– « سيدي . لقد ضيعت هراوتي في مظاهرة البارحة »

– « حسناً . لدينا احتياطي من الهراوات . هيا ! »

و انطلق غضبان وبدأ نهار آخر .

دمشق – كانون اول ٩٧٤



تحولات حميدو

١ ــ الأم

يومها ...

كانت خيوط المطر عفاريت نحيلة ترتدي السماء قبعة وتعدو متراقصة فوق الدروب والمنازل والأشياء التي لابيوت لها . وكان حميدو لايزال شيخاً بريئاً في الثانية عشرة من عمره يقف منكمشاً خلف نافذة بيتهم الترابي المنفرد بين البساتين يقلب اللحظات المطرية بلهفة وخوف ...

«لماذا لم تأت ياأمي؟أنا خائف ولا يجيئني النوم .. أنا خائف يا أمي !»

كانت امه دفاتر وأقلاماً ملونة..قطع نقود تولد في جيبه كل صباح .. حكايا لايموت فيها الناس ولا يجوعون ولا يبكون .. بيت دفء وحلوى يحتضنه طوال الليل.. أصابع تدغدغ رأسه وتفليه .. فماً يقبله ويغني له عن

العصفور الذي صار شبئاً صغيرة وعن الأشجار التي تهز اكتافها عندما تحط عليها الغربان..

★ ★ ★

-«هل عادت امك ياولد؟»

- «........»

- «عيب ياأبا مصطفى! حرام تجرح الولد.ماذنبه؟!»

- « الله . . الله وصلت الأمانة الى قليل الديانة ! ومتى كنت تعرف العيب أنت ؟ ! أتسمعون ؟ ! حضرة الشرطي باشا يقول عيب ! ! اقفل فمك والا رأينا بقايا لحم أمه بين أنيابك! »

قالت عجوز:

-«مسكين هذا الولد لاأحد له» .

قال سائق:

-«لابد أن أمه وقعت على برميل نفط! ستعود اليكم متبلة بالشيكات.. سترون ! »

قال حاج فضيل المهرب:

-«لبوة! وحق الكعبة تستطيع فك رقبة من حبل المشنقة! إنها واسعة الإطلاع والعياذ بالله!»

قال المؤذن:

«قسماً لو عرف ابو حميدو ماذا تفعل هذه الـ..
أعوذ بالله ! لهدم حيطان حبسه وجاء لغسل شرفه!!»

تمتم حميدو:

ـ«أنا خائف ياأمي ولا يجيئني النوم».

وبدأ جبل صغير من الرصاص ينمو في قلبه.

٢ ـ الجريمـة

يومها ....

أفاق حميدو على صوت أمه المكتوم:

ـ«..أقبل رجليك ياحاج! تعال عندما يكون في المدرسة .. لن آخذ منك .. اذهب الآن! بحق اولادك رح! أنت سكران!»

ـ«حلو ومتى كن العاهرات يفتحن نهاراً فقط؟! أم ان الأغراب أولى منا؟!»

ـ«اوقظت حميدو. ويلي! انصرف ياخنزير!».

صار صوتها غائماً متأوهاً كأنه قادم من بئر سحيقة.

احس حميدو بأنه يتدحرج داخل كرة من الوجوه الإبرية الحادة المقهقهة الشامتة.

ـ«ابن عاهرة! عاهرة! هره!! ه!! عا!! ابن! عابن!

عا !! هي هي هي هي ! را را را را ! ! ! »

ومع صرخة امه أحس بأفعى جمرية تتكور في داخله. تضغط بعضلاتها على جدران جوفه . تشطر صدره، تجره من قصبته الهوائية إلى علاقة الصحون حيث السكين.. السكين.. السكين!!

شد على مقبضها بكلتا يديه واندفع!

الدم! دم! دم! دممممم!

وأوقفت عدو المطر الليلي صرختان صرخة يأس وصرخة موت .

٣ ـ السجن

يومها ...

كان الوقت سبحة كبيرة من الأوقات الصغيرة البيضاء والسوداء، ولم يكن الوقت يعني لحميدو أي شيء فقد كان شيخاً في الثانية عشرة من عمره عندما وضع في الوقت الميت.

خلال ايامه الأولى في سجن الأحداث اعتاد حميدو أن يرفع رأسه ليتتبع الغيوم والعصافير الهائمة كما حاول قراءة شفاه زملائه واستخدام الكتابة والاشارات حين الضرورة فقد كانت صرخة أمه المرعوبة اليائسة في تلك الليلة الشتوية الغضبى آخر صوت سمعه وكانت

صرخة «أمي» آخر صوت ذي دلالة نطق به. وهكذا صار حميدو أصم أخرس .

حاول بعض الأحداث الاقتراب منه لكن انطوائه أطفأ محاولاتهم . وهكذا صار عالم حميدو ساكناً لايتحرك فيه الا حبات الوقت السوداء ـ البيضاء تهوي على رأسه بقتل كئيب بطيء غامض .

★ ★ ★

حرك فيه انتقاله الى سجن الرجال بقايا فضول فتجول قليلا في ساحة السجن خلال وقت التنفس متصفحاً معالم عالمه الجديد لكنه سرعان ما انكفأ الى الداخل وأحس بالحنين لرفاق معهد الأحداث.

استند الى جدار . حاول ان يتذكر الأغنية التي كانت أمه تغنيها له فلم يفلح . حاول العودة الى الحي لكن البيوت ترمدت في ذاكرته وتبدت له ملامح الجميع حزم قش عفنة باهتة إلا وجه أمه . كان وجهها بأدق تفاصيلهمايزال منطبعاً في ذاكرته ينبض رعباً أصفر ، كانت تصرخ مجهشة بصوت، تمزق صدرها العاري بأظافرها والحاج فضيل المهرب ينتفض امامها والسكين الكبيرة موغلة في ظهره والدم يتدفق ...

أحس حميدو بوجود شخص حوله .انتفض مذعوراً.
التقت عيناه بعيني رجل. كان فيهما حنو دافىء شغوف كعيني أمه. قال الرجل:

—«مرحباً»

أدرك حميدو أن الرجل يخاطبه فأشار له بأنه أصم أبكم . جمع الرجل أصابعه كمن يكتب . أشار مستفهماً فهز حميدو رأسه بالإيجاب وعيناه ما تزال معلقة بالرجل.
أخرج الرجل قلماً وورقة من جيبه. كتب :

—«ما اسمك؟»

أعطى القلم لحميدو فكتب بخط رديء مرتجف:

—«حميدو ضهر التل» .

كتب الرجل :

—«من أين جئت؟»

كتب حميدو:

—«من الأحداث ».

كتب :«متى »؟

كتب :«اليوم» .

كتب: «ظننتك سياسياً .. أنامعلم..أوقفوني فيمظاهرة أول أيار .. يبدو أنهم نسوني!»

توقف الرجل عن الكتابة، نظر ملياً الى حميدو. ابتسم كتب :

ـ«لماذا أدخلوك السجن؟»

ارتجف حميدو ، أشاح بوجهه عن الرجل. ربت الرجل على كتفه. نظر الى الرجل بتشكك . كتب الرجل «كم عمرك؟»»

تردد حميدو في قبول القلم والمفكرة. نظر إلى عيني الرجل الودودتين كتب: «١٨»

كتب الرجل :«هذا السيلول خطر عليك..»

نظر حميدو اليه باستغراب. تابع الرجل الكتابة:

«معظمهم لم ير النساء منذ امد طويل . وهم لصوص وقتلة وحشاشون. ألا تفهمني؟»

هز حميدو كتفيه باستغراب. كتب الرجل :

«غير مهم . سأتخلى لك عن الزاوية. ضع فراشك قرب فراشي ... اتفقنا؟» .

تدفق الدفء القديم في قلب حميدو وأحس بنوع من الألفة تجاه الرجل فهز رأسه موافقاً وأطلت من وراء تقاطيع وجهه ابتسامة مترددة.

٤ ـ الاغتصاب

يومها ....

كانت احدى كتل الوقت السوداء في منتصف دربها إلى النهاية وكانت نقاط الماء تتسرب من الصنبور تنقر حافة المرحاض في آخر السيلول بإيقاع رتيب. وكان السجناء مبعثرين على الأرض الحجرية شمائل لحم تؤكد بين وقت وآخر إنها ما تزال حية عندما ....

انسل رجل ذو شاربين مفتولين كقرني الثور. حبى نحو فراش في الزاوية. أطبق بيده على فم النائم. لكزه في خاصرته وعندما التقت عيناهما ازاح ذو الشارب يده عن فم الآخر وأشار برأسه نحو زاوية السيلول اليمنى. هز الثاني رأسه موافقاً. تقدم الأول من البالوعة بحذر. رفع غطائها. مد يده فيها. سحب منها خيطاً. فك السكين من طرف الخيط. مسح السكين بقميصه. أشار للآخر وأخذا يتقدمان نحو فراش حميدو بهدوء.

كان حميدو في بيت طيار تمر الغيوم بجواره. كان في حضن أمه، رأسه على ركبتيها وهي تفليه وتغني له بينما هو يتضمم حلوى سحرية رائعة ويحدق بحذائه الملون وفجأة...

أحس بنصل بارد يطبق على عنقه وبيد كبيرة ترتج فمه . انتفض مرعوباً . رأى شفتي الرجل تتحركان بتوتر ونزق . قرأ حركة شفاه الرجل بصعوبة :

— « اخلع ثيابك ! »

أدار رأسه نحو المعلم فرأى الرجل الآخر يطبق فمه والتقت عيونهما . .

— « اخلع ! ! »

. . . . وما أن انتهى حميدو من تكويم ثيابه بجوار الفراش حتى رفع الرجل اللحاف واندس تحته . اضطرب اللحاف قليلا ثم أخذ يعلو وينخفض بسرعة منتظمة متصاعدة !

٥ ـ القطة

يومها . . .

أفاق السيلول على لغط حميدو . كان ينقذف بين الجدران وعيناه مفتوحتان إلى أقصاهما كأن الرعب قد استعمرهما . لم يعره أحد التفاتاً ، حتى صديقه المعلم ظل طوال الوقت مخبئاً رأسه بين فخذيه كأنه لايسمع لغطه الوحشي .

عند الغذاء تناول حميدو صحن الفاصولياء وركض

نحو زاوية السيلول . فتش عن قطع اللحم فيه . ضمها في راحته وانطلق نحو باب باحة السجن حيث القطة .

كانت القطة تطارد شيئاً ما بين نباتات الدفلى المغبرة وسط الساحة . صفق لها . اقتربت . ألقى نحوها بقطعة لحم صغيرة . التهمتها بشره . برقت عيناها بامتنان مستزيد . ألقى بقطعة أخرى قرب قضبان الباب . وثبت القطة والتهمتها . رمى ما تبقى في راحته داخل القضبان . اندفعت القطة إلى الداخل وما أن أحنت رأسها حتى ألقى سترته فوقها وضمها إلى صدره ومضى يتطلع خلفه كاللص .

توقف في زاوية منعزلة . تلفت حوله . أخرج خيط قنب من جيب قميصه . صنع منه انشوطة . ربط طرف الخيط الآخر إلى قضيب حديد صدىء في الجدار . أدخل رأس القطة في الانشوطة وأطلقها . تدلت القطه تخرش الهواء بمخالبها . أطبق فمها بيده اليسرى . وثبت جسدها إلى الجدار بمرفقه . مد يده إلى جيب قميصه . أخرج نصف شفرة حلاقة . قلبها بين أصابعه المرتعشة إلى أن استوت بين الإبهام والسبابة .

كان الدم يعدو في وجهه . . كانت عضلات وجهه تتقلب بأفعوانية مخيفة . رفع يده بالشفرة . اهتزت يده .

طعن صدر القطة . تدفق الدم على يديه . على وجهه . طعنها ! طعنها ! !

اندفعت أمعاء القطة إلى الخارج . كان جسد حميدو يتماوج بنشوة خارقة . قلبه في وجهه . . وجهه يغلي . . يمور . . . يتقلب . . . .

– « شوارب القطة شوارب الرجل . قلب القطة قلب الرجل ! »

دفع أصابعه إلى جوف القطة . قلبها ما يزال يخفق . جمع أمعاء القطة ورئتيها وقلبها في قبضة يده اليمنى . شد ساقها بيده الأخرى وانتزع أحشاءها ! !

تكوم ملتوياً كالأفعى . . سحق أمعاء القطة وقلبها ورئتيها على وجهه . . أطلق شخيراً فظيعاً حاداً . ألقى أمعاء القطة وأخذ يجأر وينط حولها على أربع . . . .

دمشق – نيسان ١٩٧٥





برهان

توضيح لما ـ حدث ـ قد يحدث

شيء يغزل العقل ! مذهل لكنه مع أسفي وأسفكم حقيقي كالليرة السورية !

لهذا وددت – بمعنى رغبت – أن أوضح – كعادتي دوام الدوام – لأصدقائي – أنا لا آبه لتقولات أولاد الحرام – خاصة لأستاذي – ولي الفخر بذلك (الشاعر الملهم والقاص المبدع والأديب الأريب والكاتب اللوذعي والصحفي الألمعي والفنان الكبير الملهم رئيس دائرة مراقبة النصوص والمخطوطات الأكرم الذي يشرف حارتنا بسكناه فيها – لا يبعد بيته عن غرفتي إلا رمية حجر – والذي طالما تشرفت بحضور جلساته المسائية النورانية الهادئة في الكافيتريا ومناقشاته الورعة المتبحرة التي كنت أرشفها بعد كل صلاة جمعة ، أن أعلن مسبقاً دفعاً لكل سوء واتقاء لكل التباس ، اعتزازي بانتمائي وتمسكي بالأخلاق والأعراف والقيم والمبادىء والتصورات والإستهدافات الإستحكامية التي طالما طالب استاذي بها ودعا اليها.

أعلن هذا لاخوفاً من تهمة قد تلصق بي بل من أجل الحقيقة والحقيقة فقط فأستاذنا الكبير يعرف كل شيء ولله الحمد ودليل استقامتي ونبل مقصدي هوأن الأستاذ قد ابتسم لي في الكافيتريا عندما صرخ بعد جرعة مزدوجة من « الماء » :

— « لن نتساهل مع صراصير أدعياء أدب فن كوسا ! يسممون الناس بغازات عقولهم الكريهة ! لن نتساهل !

واستحسن الطريقة التي اقترحتها لإعادة النصاب إلىأموره إن لم تعد الإمور إلى نصابها . . وأطلق ضحكة ثرة حانية عندما وصفتهم — حاشاكم ! — بأنهم تيوس ! وتدفق مربتاً على كتفي :

— « صحيح . . صحيح . البلد بحاجة إلى الشباب المؤمن ، الشريف ، الورع ، النابه ، المخلص أمثال ال. . . الاسم الكريم ؟ » .

فمن كان بعينمغمضة فليفتحها لأنالبلد بحاجة إلىأمثال ال. . . « الإسم الكريم » — أنا .

مع هذا كله وعلى الرغم منه كله — أعني«هذا» — أميط الستارة عن حقيقة ما — حدث — قد يحدث دفعاً لكل سوء واتقاء لكل التباس وحرصاً على الثقة الغالية الباهرة التي

أسبغها أستاذي الكبير على شخصي المتواضع ، وتحديداً للمسؤولية لاهرباً منها كما قد يخيل لبعض « الأدعياء » السفهاء !

ما حدث ـ قـد يحدث

بدأ ذلك عندما شرعت بكتابة هذه القصة « برهان» .

لست أدري كيف سارت الأمور في تلك الليلة لكنني أتذكر بوضوح أن ذلك الولد ظل يقذفني بالحجارة والشتائم كلما غفوت وانني كنت كنصف مشنوق أجر قلمي على الورق كما لو أن قرية بكاملها تجره إلى الوراء .

لن أثقل عليكم بسرد تفاصيل يوم الحادث فقد كان في طريقه لأن يكون يوماً كئيباً باهتاً كمعظم أيامكم لو لم أتناول القصة إياها « برهان » بهدف وضع اللمسات الأخيرة عليها لإرسالها إلى حيث تقرؤونها الآن — ستقرؤونها إن كنتم صابرين . لكن . . . .

شيء يهبل ! أمسكتها غير مصدق . اقشعر بدني . هب شعر رأسي واقفاً كما التلاميذ عندما يدخل المعلم الصف . تحريف ! تزوير ! يد غريبة ! خطي . . إنه الأستاذ . . يارب . . ! وحمدت الله على إنني لم أحضر معي أحداً كي أقرأها له كعادتي ولعنت ذلك الولد (بطل القصة ستتعرفون

عليه فيما بعد) فقد كاد يجنني بنزقه وقحته أثناء كتابة القصة وهاهو ذا الآن يتطاول علي ويقول ما لا يمكن أن تفكر به أي من شخصيات قصصي !

. . . . . وأضرمت النار فيها وذوبت رمادها في المغسلة كما يفعلون في الأفلام البوليسية بعد أن أقنعت نفسي أنها إحدى فلتات صديقي محمود ، (رجل خبيث لايتقن إلا فهم الأمور بطريقة محرجة) ، لكن الأمر تجاوز الممازحة إلى الإرعاب عندما أقسم لي محمود — وكان مندهشاً — بأنه لم يدخل بيتي — أعني غرفتي التي تتكون من بيت واحد — منذ أن غادرناه معاً يوم الأحد الماضي ، لأن هذا يعني أن الوحيد الذي دخل البيت هو أنا ! وهذا مستحيل !

والآن ، أقسم بكل كتب العالم ومجلاته وجرائده — المقدسة منها وغير المقدسة — أنني نمت في الحادية عشرة والثلث تماماً — أنا أقفل الباب دائماً — دون أن أكتب حرفاً واحداً — على الرغم من حاجتي الضاغطة للنقود — لأن ذلك الولد . ذلك الـ . . . ! ! ظل مشرعاً قدميه المتشبثين المشققتين في وجهي وجاثماً فوق صدري كأبي الهول !

أما كيف خلقت القصة على طاولتي صباح اليوم التالي فهذا ما فاق مقدرتي وجعلني أشك ! ! ! فهربت .

وبعد أربعة أيام عدت إلى البيت وقررت أن أستلم زمام المبادرة فحذفت من أقواله كل ما من شأنه أن يجرح شعور القارىء وغيرت نهاية القصة بحيث تنسجم مع مبادئي ومثلي . لكن في الصباح .! !

ومرت صباحات كثيرة .

وأخيراً اقتنعت بأنني عاجز عن كتابة أي حرف إن لم أتحرر من هذه القصة فحذفت مجدداً كل ما حذفته سابقاً وغيرت النهاية كما ينبغي ولهذا .....

أعلن عدم مسؤوليتي عن هذا التجديف الضلالي — فيما إذا حدث ما حدث — لأن ظهور هذه الأشياء يعني أن اليد الغريبة — التي ربما كانت يد قنبر سعد الدار نفسه قد امتدت مرة أخرى إلى قصتي . التي يشهد السادة الفضلاء الموقعون أدناه بأنني قد أرسلتها للنشر خالية من كل العاهات الأخلاقية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية .

والله ولي التوفيق

مختار حي الـ ...
عمر بلاع البلطة
طابع وخاتم وتوقيع

صاحب العلاقة	شاهد	شاهد
حسن م . يوسف	عبدالقهار مسكين	ولي الدين عبد ربه
توقيع	توقيع	توقيع

★ ★ ★

انا قنبر سعد الدار

سأحدثكم عن قريتنا ، إنها صغيرة و ...

عفواً ،

مما لاشك فيه — وما لاشك فيه هو الحقيقة بعينها — أن حضرته هو قنبر سعد الدار حقاً وأن القرية التي يتحدث عنها صغيرة فعلا . لكنه هو ايضاً صغير ! والصغار .. صغار ! مطر طازج .. خبز تنور .. لكنهم لايعرفون أصول سوق الكلام ولا ركوبه ، كما لايعرفون من أين تؤكل الكتف — حتى ولو كانت كتف فروج مسلوق — خاصة صاحبنا هذا .. قنبر سعد الدار والعياذ بالله !

تسألني لماذا قاطعته ؟ سؤالك بدين. قسماً لو سمعك أبي (وأنتم لاتعرفونه ولن أعرفكم عليه) لجلدك بنظراته الحانقة حتى تصير من فرط خجلك كحبة العدس ، ولأبي كامل الحق أن يزعل منك — حتى بقبضته — لو سمعك تطالب باطلاق سراح لسان ذلك الولد النزق فقد هدر — أعني والدي — نصف عمره لتعليم

هذا الولد – أعني قنبر سعد الدار – حتى تثقف وتنجر وصار الأستاذ أنا كاتب هذه السطور

لهذا اسمح لنفسي – كما ينبغي – أن ارسم ملامح قريتهم حالياً التي هي قريتنا سابقاً وستكون قريتنا في القصة لأسباب فنية.

★ ★ ★

نجمة على كتف أغنية شهيدة : قريتنا

اسم آخر للموسيقا يشبه الرغيف المحروق: قريتنا

دمعة ناضجة فوق خد تفاحة ناضجة :قريتنا

لغة مهملة لم يبق منها الا لفظة «حزن» : قريتنا

يد صبية تغضنت وهي تنتظر الخاتم : قريتنا

صغيرة وطيبة، تحلم وتزرع، تحلم و...تحصد،

اتحلم وتحلم : قريتنا.

الحلم هنا..هو اعنقي يجعل خبز الشعير العاري مع البصل العاري أطيب من العسل . والطيبة هنا.. درب يفضي بالأجساد المنهكة الى موانئها في المساء لتبدأ سفرها في دروب الحلم بعيداً عن الرغيف المفترس .

أنا قنبر سعد الدار . أظن أن والدي لم يعرف السعد في حياته الا اذا عرفه في بطن جدتي . يدا والدي كأيدي الجميع الا زعيم القرية الذي يحتكر الحبوب ــ سميكة ومتشققة ومتقشبة تتقن الحركات الضرورية لدغدغة الأرض وتربيتها . عند صياح الديك تذهب الحطابات لإحضار الحطب من حيث لاادري وقبل الشروق نرتدي ثيابنا...

.... لا بل بر ادعنا القذرة ونخرج لمواجهة الصيف الجهنمي في حواكير التبغ اللعين الذي يمتص أيام أعمارنا مقابل أشياء تافهة ثم يمضي إلى البحر وهو يضحك علينا !

أخرس ياولد ! قلت لك ألف مرة عندما أتكلم أنا تسكت انت!

أيام .. أيام .. مجرد أيام طوال العام. أيام وشقاء أصبح اليفاً لا يلفت انتباه احد الا الغرباء .

أربعة أيام في السنة . أربعة أيام آملة مثيرة يعيشها الكبار والصغار تبدأ عندما يحين دور القرية في «كومسيون» التبغ ــ أي«لجنة» التبغ باللغة الفرنسية كما علمت مؤخراً ،كما لايعلم أحد من قريتنا ــ وبعد ذلك تمتد أيام

الصيف طويلة حارة خاوية ولا يبقى أي موضوع للحديث الا الخيبات والمظالم . هكذا تندب القرية حظها مستنكرة بخس «الكومسيون» للمحصول واجحافه بحق القرية على الرغم من ان الجميع يعلمون حقيقة ما يحدث ..

. . . نحن ننال أكثر مما نستحق لأننا أيضاً متورطون في اللعبة . . . نشحذ ما هو ملكنا وتعبنا ! نعم . نحن جميعاً نعلم أننا قد سرقنا حواكير تبغنا قبل تخمينها . نحن جميعاً نعلم بأننا نهرب ما يزيد عن تقدير « المخمنين » ونبيعه لبدو العلا الشرقي ومع هذا فنحن متفقون ! متفقون على الذل ! ! ! الجميع يقولون بأن هذا واجب ! واجب لماذا !؟هل من واجبنا أن نسرق أنفسنا ؟ ! وهل من واجبنا أن نظل متمسكنين هكذا إلى الأبد ؟ !

لسوف أريك أيها المسخ ! اقترب ثانية !! فارغة وعارية ، هكذا تمضي الأيام من قريتنا ونبقى .

★ ★ ★

في ذلك اليوم اضطرت قريتنا للوقوف على أقدامها واضطر الجميع لرفع رؤوسهم حتى الشيخ سعدون (مدمن غريب الأطوار يحكى بأنه على علاقة مع الزويغة

صاحبة«الكلكة»(١)الوحيدة في القرية) أطل بوجهه اليومي على القرية — ربما لأسباب تموينية عَرَقيّة — في ذلك اليوم . كل هذا لأن الشيخ غانم (رجل يجيء الى قريتنا في سيارة كالسلحفاة مرة في السنة لجمع الأتاوة كما اعتاد استاذنا أن يقول) قادم الى القرية بعد ساعة واحدة كما قال راكب الحصان .

ولما كان الشيخ قد جاء منذ اسبوعين فقد جاء هذه المرة — كما قالت جارتنا (امرأة كالرجل لها شاربان) لكسب بركة جد القرية لأنه قد رشح نفسه للانتخابات ولأنه — كما قالت — رجل تقي لدرجة الورع وقد اقتنعت بقولها لأنه كان يخصني ببعض فرنكات فأقبل يده وأجلس ....

ليس صحيحاً ! كان يعطيني الفرنكات كي أقبل يده لكنني كنت أرفضها دائماً . وقد كان والدي يطاردني بعصاه بعد كل زيارة لأنني كنت أفعل ذلك على عكس الأولاد ولم يقلع والدي عن هذه العادة إلا عندما أمسكني ذات مرة من رقبتي وصرخ في وجهي: « يا ابن الكلاب ! أتريدأنتبهدلني؟!» فقلت له بهدوء : « لنفترض بأنه كان في الخارج ونسي

(١) جهاز بدائي التقطير العرق .

أن يغسل يده ! فصرخ : « لا فائدة ! » وكان في عينيه بريق شديد لو كان والدي من الممكن أن يبكي لقلت بأنه دموع !

آ ا ...لم أخبركم سبب كرهي له . لقد ذبح قنبر — لا أعني قنبر أنا بل قنبر خروفي — وكان المسكين صغيراً وكان صديقي الوحيد .

★ ★ ★

سبقت الجميع الى المقام — لم أقبل العتبة كما أوصاني والدي — وتسلقت شجرة السنديان الهرمة المنتصبة وسط الساحة البائرة — لأحد يجرؤ على مد يده الى ممتلكات المقام — والساحة منها — فقد قال ابراهيم القط (عجوز مؤمن لدرجة التخصص) بأن جد القرية قد فلج عليه عشرة دونمات لأنه أخذ أربعة عيدان كبريت دون أن يقرأ الفاتحة وقد كان عنقه متورماً بالفعل عندما أفاق — وبعد لحيظة كنت راكباً متن غصن شجرة السنديان الغليظ الذي يمتد نحو مدخل المقام .

اقتربت السيارة تجر وراءها موكباً مهيباً لا يقطع صمته الا نباح كلب مرقط ، ثقيل الجرم اسمه «قشعور» (لايصلح الا للنباح) في الحارة الغربية . وعندما توقفت

السيارة – تحتي تماماً – دوت زغرودة وجلة ارتدت الى مصدرها برشاقة تطاردها نظرات الشيوخ الزاجرة وساد صمت رمادي مهيب .

فتح أبو علي (تابع منافق يستحسن أقوال الجميع) باب السيارة فتدلت منه ساق بحذاء لماع صغير وبنطال أسود منسدل بنعومة . حدقت بقدمي المغبرتين المليئتين بالعقور المتقيحة و... نظرت بشك الى عيني والدي الغائمتين وهو يقول مستبهجاً:

–«تريده اسود ؟ غداً سيكون هنا.غداً..مد قدمك» .

كان والدي يقيس أقدامنا بالخيط لأنه لم يكن يعرف نمر أرجلنا وكانت أصابعه تزداد ارتجافاً في كل مرة – ربما لأنه كان يعلم اننا سنظل حفاة – وكان يعقد الخيط عند ابهامي المعقور وفي عينيه بريق شديد لو كان أبي من الممكن أن يبكي لقلت بأنه دموع !

– «واحد واحد ياجماعة .. رضي الله عنكم ».

انهم يقبلون يده البيضاء بلهفة تفوق لهفة حميدان(مهرب بضائع) عندما كان يقبل زهرة (صبية تحلم بالزواج من عسكري أو غريب) ولكن في مكان آخر. لقد رأيتهما خلف مكدس الزرع . كانا جميلين ورأيتهما ولم يعرف سرهما أحد

عندما دخل غانم باك إلى المقام خيل إلي بأنني قد فهمت لماذا لم يعد أستاذنا (رجل يحلم بعذوبة متناهية ويدعي أن أحلامه ستتحقق) بعد شتمه للشيخ محمد (أكبر شيوخ قريتنا والوحيد الذي يعلم ابنه في المدينة بمدرسة خاصة ويعيش من الزكاة وتوابعها) وفجأة . . . .

دوى صوت المنادي أبو صرعة (شخص يقال بأنه مسكين وصوته لعلاع لكنه يسهر الليالي ويتلصص من الكوى والنوافذ على ما يحدث في أسرّة الآخرين)

— « يا سامعين الصوت صلوا على النبي . فليعلم حاضركم غائبكم أن الشيخ غانم بك من أولياء الله الصالحين فقد امتلأ جرن المقام بالماء على وجهه وظهر برهانه كعين الشمس »

علت الأصوات بالتكبير لكنها انطفأت عندما شق غانم بك بحر البشر الواجم أمامه . كان وجهه مبللا وكانت معالم وجهه تنطق بالقرف والتقزز وكان الشيوخ يتبعونه كالأصنام . لكن رجلا (لم أره قبل ذلك) يرتدي طربوشاً أحمر كغانم بك همس في أذنه ببضع كلمات محت معالم القرف عن وجهه واستبدلها ببسمة اطمئنان . عندها فقط تقدم الشيخ محمد (عرفتكم عليه) وقال متلعثماً :

— « خير سيدنا ؟ خير إن شاء الله ؟ ! »

تمتم غانم بك (وكان قد فهم كل شيء وقر قراره):

— « صداع ... صداع بسيط. أرجوك لا تدعهم يصرخون هذا . . . إن الله سبحانه لا يحب المتشاوفين ! »

حدقت في إبهامي المعقور . . . منذ زمن . . .زمن طويل. كبرت أنا وكبرت قدمي وأبي يقيس قدمي بالخيط ويعقده عند رأس إبهامي التعس . يضعه في جيبه العلوي وفي عينيه ألق شديد لو كان أبي يبكي لقلت بأنه دموع. هكذا..يخرج الماء من صخرة لهذا الرجل ولا يرسل لي حذاء ! إنه لا يحبني ! ! !

★ ★ ★

عندما نزلت من على شجرة السنديان كانت الساحة خالية تماماً، كانت الشمس تذوب في البحر تاركة بصماتها الحمراء على شجيرات السنديان والبطم والتين مضفية على خضرة أوراقها لمسة حنان حزين . كانت قريتنا تحتفل ببرهان غانم بك . . . .

تقدمت نحو المقام ببطء . قبلت العتبة وخلعت حذائي—

كنت قدأقلعت عن هذه العادة – وما أن اجتزت العتبة حتى قفزت نحو الجرن . . . تعثرت . . . على وجهي . . يدي قريبة . . . مددتها . .

كانت هناك بقايا ماء فعلا ! !

اجتاحتني قشعريرة . أشعة الغروب عبر زجاج النوافذ المعشق تخلق إيقاعاً جليلا خانقاً في الهواء ،

الكتابات الدينية تزحف على الجدران . تتثاءب . الحربة الطويلةالمنتصبة عند رأس الضريح تتحرك .. تميل برأسها نحوي . . وجاء الصوت .

– « ارفع طرف السجادة وخذ ما تجده . إن الله يجزي الصابرين . »

. . . ورفعت طرف السجادة فوجدت . . ثلاث قطع ذهبية . وعندما صرت في الخارج رفعت يدي وكبرت بصوت متهدج فأحسست بأن الشمس التي غابت لتوها تشرق الآن في مكان ما من جسدي .

هذا كذب ! كذب ! ! كذب ! !

ما حدث فعلا هو أنني :

كنت خائفاً فعلا وكبرت ! لكن ضحكة سالم قاطعتني ،

(ابن خادم المقام يقال بأنه ولد عاق وكافر لاينفذ مشيئة والده وأصبح صديقي منذ ذلك اليوم)

شهقت كمن بوغت . قفزت . أمسكت به من عنقه. ضغطت ، كنت عنيفاً بعض الشيء دفعني صارخاً في وجهي :

– « ما بك ؟ ! هل جننت؟ ابتعد ! »

وابتعدت كان أقوى مني ولو شاءضربي لماتمكنت منه قال :

– « ما بك تكبر كالأهبل ؟ ! هل جننت كالجميع ؟ ! لوثتني ! تفوه ! »

كنت ماأزال تحت تأثير الجو . مذهولا كنت...أحدق!

– « كلهم مصاريع ! أصابوك بالعدوى ؟ !

جعلوا منها قضية . حفنة ماء ! كانت أمي مشغولة بتقطيع العجين لهذا حمّلتني أختي الصغيرة(رضيعة اسمها سلمى)جئت هنا صدفة . . . صدفة جلبت كوز الماء . . . وضعتها في الجرف كي أكتب وظيفتي وكان الكوز قربها . . .ففعلتها . . . فظنوا ! ! العمى ! ! !

دمشق – نيسان ١٩٧٦

ثالاسيمياعظمى

وقائع الزيارة الاولى

« أول الدبكة حلج يا ابن أخي ، فليتحنن الله عليك غداً تأخذ ورقة الشهادة وتعلقها على الحائط وترى ، عندها يصبح الشيء شيئاً ثانياً . صحيح أن بعض الأوراق عدم ، لا تصلح إلا للمسح والصر لكن بعض الأوراق تحط ابن أدم فوق الفوق أو تحت التحت . اسألني أنا .

هل اشتممت رائحة الفصل الناقص؟ فصل الحكيم حامد بن مريوما مع ولي نعمته الحاج حازم ؟ هه ، وغلاوتك عندما اتذكره يفور نافوخي كإبريق الشاي ، ابن الدنيئة ، الويل له من حساب الرب . . صرف الحاج دم قلبه عليه حتى علمه وعندما صار حكيماً بورقة تنمرد وداس اليد التي أكل أصابعها . تفوه على هذا الصنف!

يقولون العين لاتعلو على الحاجب . . اسم الله ! هاقد عشنا ورأينا ! ابن الأفعى ، من تراه يكون لولا حازم أغا ؟ واحد ابن شارع لايعرف أباه لمه الحاج وأعطاه ماله واسمه ! صدق المثل : ذنب الكلب يبقى أعوج ولو وضع في القالب حتى يوم يبعثون،وابن الحرام يبقى ابن حرام حتى ولو صار حكيماً بورقة !

أتعلم؟اتهموا الحاج بأمه لكثرة اهتمامه به،وعندما صار حكيماً وشم الهواء أراد أن يخرب البيت الذي رباه! العمى الأفعى لاتبخ في الجفر الذي تشرب منه وهو أراد خنق من كان في مرتبة والده ! تصور ! لقد قال للعمال إن الحاج حازم يمتص دمهم ! وهو الآن يحرضهم على تعطيل الشغل والمطالبة بأشياء لم يسمع بها الله ! كل هذا لأن الحاج افتتح له عيادة واشترى له شقة تخزي العين وأوصى له على سيارة ! !

والله صدق من قال : اتق شر من أحسنت إليه ! بشر ! ! قسماً لو كان هذا العاق يخصني لقطعته وأطعمت لحمه للكلاب ! لكن بسيطة هناك رب ، وما نطحت شجرة ربها الا لواها ورماها ! » »

كان منير قد سمع هذه الأقاويل في أكثر من مكان لكنه لم يسمعها منمقة ومصفقة كما سمعها من شاكر البحري. تمالك نفسه لفترة وعندما لم يتمكن من قمع الدم المتظاهر في وجهه هب واقفاً وقال بصوت هدجه الإنفعال :

– « أستاذن . لقد تأخرت » .

ارتجف شاكر البحري كمن فوجىء برشقة ماء بارد فأدرك حالاً أنه لم يحسن انتقاء الموضوع وراوده إحساس غامض بأن منير ربما كان يخالفه الرأي بحامد عطا الله أو يعرفه فنظر إليه بتودد :

– « ما بك يا ابن أخي ؟ اجلس ، استحلفك بحياة الوالد . . . هل ظننت ؟ اعوذ بالله . . أنا أشبهك بذلك الفائن ؟اجلس يا عيوني . . اجلس بالله عليك ! » .

. . . . وقبل أن تستقر أضلاع كرسي القش المنخفض تحت جرم شاكر البحري صرخ باتجاه ستارة قماشية في زاوية الغرفة الجنوبية الشرقية محاولاً تمويه اضطرابه :

– « ما قصة هذا « البابور » يا مديحة ؟ لو كان جهنم لآن لها أن تشتعل ! خلصينا ! » .

رد عليه صوت انثوي من وراء الستارة القذرة :

– « جهنم تأخذ هذه النكاشات يا با . انكسرت كلها ! »

شلح شاكر البحري يده في الهواء بحركة تذمرية ثم التفت إلى منير وربت على كتفه بحنو صاف :

– « أهلاً منير ، لاتزعل من عملك شاكر ، رحم الله والدك وهو حي ، كان معلمي قبل الحادث . كنت يومها في قسم الأصبغة ، كان بابنا على بابكم وكنت أنا والوالد أربعة أرجل بسروال واحد كما يقولون . . أي والله . كنا لانفترق . . ايه . . كيف حالكم هناك ؟ أتعلم ، كدت أن لاأتعرف عليك ، يا مشاء الله ،أيام، أذكر يوم ولدت ، كانت أم مديحة قابلتك ، كنت بحجم التفاحة ، أي والله وكنت أحمر كالتفاحة . . أحمر وتزقزق .

بعد مجيئك بإسبوعين مرضت أم مديحة ، كانت ضعيفة وذات ليلة ضيّق المرض عليها ولم يكن معي بارة لمداواتها ، كنت أنا والوالد ليلتها ، أي والله في تلك الليلة الملعونة قال لي أنك ستكون حكيماً . قال وفعل ، ما شاء الله ، البارحة كنت بحجم القبضة وها أنت حكيم كالوردة ملو العين .

أنا عاتب على الوالد ، رأيته البارحة صدفة . سامحه الله لم يعد يطل علينا . دائماً يتحجج بالشغل ، لكنه يعرف مثلي أن الأيام تنتهي والعمر ينتهي والشغل لاينتهي . اسألني أنا » .

أحس شاكر البحري بالحرج لأن منير لم يجامله ولو بكلمة واحدة فأخذ يفرقع أصابعه وبعد دقائق من الصمت قال :

ـ « أوصيت لك أن تمر بنا من أجل صويلح . . أنا لم أعد أحتمل يا ابن أخي ، كان صويلح ملح أيامي بعد المرحومة . . اسم الله كان كقطفة الحبق . . لاأعرف .. كأن عيناً لدغته ! يا حسرتي صار مرآه يقطع نياط القلب ! عرضته على طبيب المستوصف ، المحبة من الله ، أنا لا أطيق هذا الرجل ، في كل مرة ينظر إلي كأنني عزرائيل ويقول لي من طرف فمه : « لايشكو من شيء » ويعطيه حبوباً حمراء ، في المرة الأخيرة فقدت أعصابي ، صرخت في وجهه : « كيف لايشكو من شيء يا محروق الوالدين؟ ألا تراه ينس كرغيف منسي في التنور ؟ » .

حرك منير كرسيه ، تنحنح ثم قال بارتباك :

— « عم شاكر أنا لم أتخرج بعد لكنني جئت بناء على طلب الوالد . . . . هل ينام كثيراً ؟ » .

أشار شاكر البحري إلى سرير معدني عريض يشغل زاوية الغرفة الشمالية . تمتم :

— « لم يفق منذ أن عاد البارحة من المدرسة . يقول أنه مصدوع ولايرفع رأسه يا حسرتي ! »

هم منير بالنهوض لكن الستارة الرمادية استوقفته إذ تفتحت عن صبية سمراءتحمل صينية عتيقة من التنك مثبتة إلى قاعدة من الأسلاك المعدنية ، اقتربت الصبية من منير . قالت بصوت عذب خفيض :

— « تفضل استاذ منير » .

. . . . . وتناول كل منهما كأسه دون تردد وشرعا يرشفان الشاي بصمت ،بعد الرشفة الثالثة قال شاكر البحري مبتسماً بتودد :

— « هذه الصينية وهذه الكؤوس هدية من حازم آغا ، أسأل العزيز المقتدر أن يوفقه أني توجه وأن لاينساه من رحمته ، رجل ولاكل الرجال ، لقد أرسله الباري رحمة بنا فلو لم يحنن الله قلبه على حالي لطردني من المعمل بعد أن هرست آلة التجفيف يدي ولصرت شحاذاً مثل

ابراهيم الدويك وحسيب البشراغي . هناك رب ، والرب يعرف منزلته في قلبي . إلهي وفقه وسدد خطاه . تصور ، بقيت ثلاثة أسابيع خارج المعمل ولم يقطع من راتبي قرشاً واحداً وعندما شفيت عيني مراقباً على قسم الطبع . رجل تقي . يحج ويصوم ويزكي ويوزع الهدايا كل سنة ، هداياه على قد حالها ، هذا صحيح فليس معقولاً أن يوزع ثروته على الناس ويبقى على الحصير، لكن فص من الجوهر جوهر كما يقول المثل .

وحياتك ! إنه يحمل هم العمال ويفكر بمصلحتهم ليل نهار ومع هذا تجد بينهم من لايعجبه العجب ولاالصيام لافي شوال ولا في رجب ، أناس بلا أصل ! بهائم لايعرفون مصلحتهم ! لقد جعل الحكومة تبني لهم مستوصف صحة هنا .. هنا في هذه الحارة ! وفوق هذا أجبر الحكيم على معاينة أولاد المدرسة كل اسبوع ومنذ سنة جلب لأولادهم الحليب الأمريكاني من (النافعة) ودفع أجرة نقله إلى المدرسة من جيبه الخاص . قل لي ، أين يوجد مثل هذا الرجل ؟ قسماً يلزم عليهم تقبيل يده عند طلوع المباركة وعند مغيبها ! أتعرف كيف يردون له الجميل ؟ أولاد العكاريت يعطلون الشغل ويسبون عليه علناً و . . ...»

ضرب منير كأسه بالصينية التنكية بقوة مقصودة ونظر بنفاذ صبر إلى زاوية الغرفة الشمالية حيث السرير فأدرك شاكر البحري بأنه لم يحسن انتقاء موضوعه مرة أخرى فتشاغل بنكش منخاره ولإستماع لأنين كرسي القش المنخفض .

. . . وارتجفت شفتا شاكر البحري عندما فك آخر زر في قميص ابنه ، تمتم بصوت متهدج ساحباً عينيه عن صدر الولد الهزيل :

— « كأنه لايأكل إلا التراب يا حسرتي . توقفت عن التدخين لأجله لكنه كمن يسير إلى الخلف . . . »

جلس شاكر البحري على طرف السرير ، أطلق تنهيدة مرتجفة ، أدار وجهه نحو الحائط المتعب ، وشلح رأسه المثقل بين يديه وسرح مع أفكاره .

— « عم شاكر ، ساعدني من فضلك ، ارم المخدة خلفه » .

. . . وراقب شاكر البحري عملية قياس ضغط ابنه بغياب . كانت عيناه متعلقتين بكيس الضغط الرمادي كأنهما ترجوان منه شيئاً ما . وبينما كان الكيس ينتفخ على دفعات تشكلت في عيني شاكر البحري غمة

صغيرة ذابت فيها حدود المرئيات بالتدريج ، وعندما تهدمت الغيمة على خديه ، كور سبابة يده الوحيدة وقطفها بهدوء .

حل منير مقياس الضغط عن ذراع صويلح . قال وهو يرفع السماعة عن أذنيه:

ـ «عم شاكر، ما نوع الحقن التي اعطيتموه اياها؟»

ارتجف شاكر البحري كمن بوغت:

ـ «حقن؟ نحن لم نعطه أية حقن»

تمتم منير باستغراب:

ـ «وما هذه اذن؟»

مط شاكر البحري رأسه مستطلعاً. كانت يد منير تشير الى حبيبتين من الدم اليابس فوق الوريد عند بطن المرفق، شحب شاكر البحري ، وضع يديه على كتفي ابنه صويلح وهزه برفق . هزه . فتح الولد عينيه ببطء.

ـ «صويلح . من أعطاك الحقن يابا؟ ».

نظر صويلح الى والده بوهن وغموض ثم اغمض عينيه من جديد.

هزه بعنف اكثر .

–«تذكر ياعيوني. كرمى لروح أمك تذكر! تذكر..»

استوقفته لمسة هادئة من يد منير.

– «عم شاكر ، لاتجهده، هذا لايفيده ...»

تراجع شاكر البحري مطرقاً، التفت منير نحو مديحة وقال لها بصوت حيادي .

– «أريد وعاء نظيفاً لغلي «السيرنك» سوف آخذ عينة من دمه للتحليل».

مونولوج أول

منذ يومين لم يفق حشيشة قلبي إلا دقائق . أكل قليلا وشرب كثيراً ونام وأنا وابنتي مديحة منذ يومين لم نأكل ولم نشرب ولم ننم .

البارحة ذكرني صمت الليل بقريتنا . أوقظ خطواتي في زواريبها وأوقظ زواريبها في قلبي . وعند الفجر اكتشفت أن العصافير هنا أيضاً تستيقظ مبكرة وتزقزق ، وأحسست بأنني سأموت غريباً وبأنني لن أعود إلى هناك أبداً . وكان قلبي بارداً كتنور قرية جرفها الطوفان .

البارحة . تذكرت أيام طردت من عملي عندما كنت شاباً لأنني بصقت باتجاه المراقب ، والبارحة بكيت عندما

بصق شاب من عمال قسم الأصبغة باتجاهي ، وصرخ آخر عند مدخل المعمل بأعلى صوته : « شاكر الجاسوس تاسومه ! »

كنت أعلم أنهم لايثقون بي ولايحبونني والبارحة تأكد لي أنهم يكرهونني ويحتقرونني .

وقائع الزيارة الثانية

عندما أطل منير من باب الغرفة قفز شاكر البحري عن كرسيه واندفع نحوه :

ــ « أهلاً . ابن حلال . قل لي . إن شاء الله خير ؟ »

نقل عينيه بين شاكر البحري وابنته مديحة ثم ابتسم بتصنع واضح :

ــ « لاشيء يذكر ياعم شاكر ، اطمئن » .

توقفا في زاوية الغرفة الجنوبية الغربية . قال منير بصوت منخفض :

ــ « عم شاكر ، كلام رجال ، حالة صويلح غريبة ، غريبة قدر ما تتصور . إنه يشكو من فقر في الدم نتج عنه وهن وشحوب شديدان وأنا لم أجد أي مبرر منطقي لهذا كله ! عرضت حالته على أحد أساتذتنا في الجامعة وأريته التحليل فاندهش . التحليل يثبت أنه غير مصاب بأي مرض من أمراض الدم كما يثبت أن نسبة الكريات الحمر الشابة عالية جداً في

الدم ومعنى هذا أن «النقي» الذي يولد الدم سليم ونشيط جداً ! »

غمغم شاكر البحري :

– « وما معنى هذا ؟ »

– « معنى هذا أن ابنك صويلح سليم ويجب أن لا يعاني من فقر في الدم ! »

– « وما مرضه إذاً ؟ ! »

– « قلت لك . . . فقر في الدم ! » .

احمرت تجاعيد وجه شاكر البحري وقد احتقنت بالدم .

صمت لحظة ثم قال بصوت مرتعش حاول جهده أن يجعله هادئاً :

– « ماذا تقول ؟ وحق الله سأنبهل ! تقول مريض بفقر الدم وتقول أنه يجب أن لايكون مريضاً بفقر الدم ، ما المعنى ! ! قل لي بحق الـ . . . أو ادم ! رأسي سيطق ! »

– « هل تبرع بدمه ؟ » .

كان هذا السؤال أغرب من أن يستطيع شاكر البحري احتماله فزور منير بعينين محقونتين بالغضب :

– « مريض ! ! وولد ! ! وتسأل ! ! ! »

انكمش منير لحظة ، شد على يد شاكر البحري ، همس بخوف :

ـ « اسمع ياعم شاكر ، في هذه الحالة هناك تبرير واحد لحالة ابنك صويلح هو أن الدم يؤخذ منه بكميات. . . »

انتفض شاكر البحري كالمصعوق ، طعن منير بعينيه الحمراوين ، وهناك في القاع رأى شيئاً أفزعه .

ـ « أتذكر عندما سألتك عن الحقن؟ ربما . . . . » .

انفجر شاكر البحري برعب بركاني مجنون :

ـ « ماذا ! ؟ يأخذون دمه ! !د . . م . . ه . ! ! »

مونولوج ثان

. . . وعند منتصف الليل أعطاني منير حبتين صغيرتين فهدأت وذبلت كالثوب واقتنعت بكل ما قاله لي .

ليلتها حدثني عن الجامعة ، قال لي أنهم ينظرون إليه كبيضة الديك . وقال لي أن الحكيم حامد عطا الله ليس فائناً كما قلت فقد رفض أن يكون سنارة ينشل بها الحاج حازم آغا جيوب الدراويش فهو يداوي المحتاجين مجاناً وسيرد كل ما أنفقه حازم آغا عليه حتى آخر بارة وقال أنه يتمنى لو يكون مثله ، وقال أنه سيعود الى حينا العتيق وسيفتح عيادته هنا . وقال ن من ينكر أصله لاأصل له وقال انه لمولن ينسى الخبز والملح والأيام وقال بأنه يتمنى لو أن والده ظل عاملا ولم يشتغل بالتجارة لأنها مهنة قذرة ، وقال ان

اليد الملطخة بالشحم والزيت مباركة وأنه هو وأمثاله يتشرفون بتقبيلها .

وارتعبت من أن يندم عندما يكتشف بأنه قد وضع ثقته في غير محلها فشعرت بأنني مزبلة فأقسمت له بأنني لن أشي به وقلت له : أجل قلت له ! أنا شاكر البحري صاحب اليد المبتورة . . قلت له انني مزبلة ! وطلبت منه أن يبصق في وجهي لكنه لم يفعل بل أطرق رأسه ومضى ولم يعد .

وقائع هذا اليوم

خلع شاكر البحري جزمته المطاطية ووضعها وراء الباب ، لمح مديحة واقفة بجوار السرير . لم يتمكن من تمييز ملامحها بدقة بسبب الظل الساقط . ناداها ، نظرت اليه ولم تجبه . قفز الليل الى قلبه ، ترنح لحظة ثم اندفع نحو السرير ممتقع الوجه .

– « صويلح ؟ صويلح ؟ رد علي ! » .

هزه،ناداه ، وعندما لم يبد أية استجابة وضع شاكر البحري رأسه بين يديه وانكب على وجهه ينشج كطفل.

. . . . . . وفجأة توقف عن النشيج .انتفض كالمصعوق كشف عن ذراع صويلح الأيمن . كشف . . .

هاهيذي حبيبة دم لم تيبس بعد فوق وريد اليد اليسرى عند بطن المرفق .

. . . واتضحت أشياء كثيرة .

تمعدنت عضلات وجه شاكر البحري ، قفز الى زاوية الغرفة ، اجتاحت يده سطح الخزانة ، كسحت كل ماعليها ، رعد شاكر البحري ،قلب الخزانة بجذبة واحدة . عبق الغبار ، تكشف عن خنجر عتيق معقوف ،ما أن ميزه شاكر البحري حتى التقطه ودسه تحت حزامه . زعقت مديحة برعب ، حاولت اعتراض طريقه فشلحهاخلفه وانخطف عبرالباب .

كان يعرف طريقة جيداً .

وبينما كان يركض كانت الأفكار تتراكض في ذهنه وعندما توقف اتضحت أمور أكثر . انهمرت أطرافه على باب بيت المعلم ، صرخ المعلم من الداخل بحنق :

– « طيب ! قادم ! ! » .

اجتاح شاكر البحري الباب كالريح . ارتعش نصل الخنجر على عنق المعلم .

– « أعلم انه لاعلاقة لك ، لكن ان لم تقل فوراً أين كان صويلح اليوم فسأغسلك بدمك ، انطق ! »

قال المعلم بهدوء :

— « أبعد هذا عني يا عم شاكر . صويلح راح الى المستوصف منذ الصباح . . . . . طلبه الطبيب لمعاينته ولم أره بعد ذلك ، خير يا عم ؟عساه خبر ؟ »

غمغم شاكر البحري بشيء ما ثم استدار راكضاً :

كان يعرف طريقه جيداً ويجري .

انهمرت قبضته على باب المستوصف ، أطل وجه الممرضة من شق النافذة . قالت ببرود :

— « انتهى الدوام.رح وتعال غداً » .

وأغلقت النافذة .

★ ★ ★

وراء النافذة كانت النار تشتعل فوق الثلج الناعم ، وكان الثلج يذوب ببطء النار المشتعلة ، وكان الثلج الذائب يمضي نهراً طفلاً يحبو فوق الثلج .

يحبو . . يحبو . ثم يخلع خفيه ببطء وينام . وحينما تنطفىء النار يموت النهر . ينقلب مسمار جليد مغروز في قلب الثلج الناعم .

مسحت الممرضة العارية العرق عن جبينها ، نظرت

الى الطبيب المطفأ المتكوم على وجهه بجوارها . قالت :

ــ « أنت تضحك علي . أنت لاتحبني . ».

انتظرت رد فعله لحظة وعندما لم يتحرك انكبت على وجهها وأخذت تنتحب بصمت . فتحت عينيها قليلاً، خيل اليها أنها قد رأت ظلاً يتماوج فوق جسد الطبيب. استدارت ، رأت شاكر البحري يقفز من النافذة ضاغطاً أسنانه على خنجره المعقوف ووجهه طافح بالعرق وعيناه تموران بالجنون ، زعقت ، اندلعت واقفة ، لم يعترضها، اختطفت تنورتها عن طاولة المعاينة وطارت عبر الباب.

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب .

أحكم شاكر البحري أصابع يده على مقبض خنجره ولكز الطبيب بطرف ذراعه المبتورة ، رعد :

ــ « ابن الأفعى ! أنت ميت ! قل ماذا فعلت بصويلح ؟ ! انطق ! » .

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب .

ــ « تمتص دمه ؟ ! ! قل ! ؟ » .

غاض لون الطبيب . أخذ يترنح ويشفط الهواء من خياشيمه ، انشدت شروش رقبته ، كشر عن أسنانه ، أخذ يرغي وينتفض كالمصروع .

شلحه شاكر البحري على الأرض ، تدحرج قليلاً ، أخذ يخور بإيقاع متصاعد وجسده العاري يتلوى متشنجاً كجسد أفعى رأسها يهرس .

– « قل ! ! » .

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب .

قال بصوت متقصف جاف :

– « سيقتلني ! أقبل نعليك ! سيقتلني إن قلت ! ».

– « قل ! ! » .

قح الطبيب بذعر :

– « داخل عليك ! ! أنا بريء ! بريء والله ! »

– « قل يا كلب ! ! »

– « أنا بريء ! ! حازم هو . . . حازم آغا ! »

انتفض شاكر البحري عندما ذكر اسم سيده .

زعق :

– « ما به حازم آغا يا نذل ؟ ! ! حذاؤه يبارك رؤوس أجدادك ! ! »

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب .

احتضن الطبيب ساق شاكر البحري .كور جسده العاري المرتجف حولها ، وأخذ يهق وينشج بمرارة :

– « صدقني ! داخل عليك ! حازم آغا . . .
حازم جلبني إلى هنا . . أجبرني على معاينة الأولاد . .
منعني من الإنتقال . هددني بالذبح ، داخل على عرضك.
صدقني ! حازم آغا . . حازم . . عنده ولد . .
ولد مريض . . مريض بالدم . . بالدم يموت . . . . ».

واسمحوا لي بتجميد القصة قليلاً فهناك أشياء لابد من اطلاعكم عليها .

استشارة طبية

نظراً لأن طبيب القصة غير قادر على إعطاء صورة واضحة للقراء عما يجري باعتباره من خلقي ويستمد معلوماته الطبية من معلوماتي المحدودة جداً ، لهذا قمت بزيارة الطبيب أسامة الصالح – وهو الشخصية الواقعية الوحيدة في هذه القصة بالإضافة إلى شخصيتي طبعاً – وعرضت عليه ابن حازم آغا ، وبعد أن عاينه ودرس حالته الصحية تبين أنه مصاب بمرض انحلالي في الدم يدعى « ثالاسيميا عظمى » .

وبعد أن وضح لي الطبيب أسامة مشكوراً حالة ابن حازم آغا الصحية والنفسية أشار علي أن أستعين بكتاب

« أمراض الدم » المقرر على السنة الخامسة في كلية طب جامعة دمشق فوجدت فيه فصلاً عن هذا المرض أورد أهم الفقرات التي توضح طبيعته :

« يبدأ المرض خفية والشحوب هو أول الأعراض المنبئة وسببه نوبات انحلالية دورية وقد يظهر الشحوب منذ الأسابيع الأولى لولادة الطفل وقد يتأخر ظهوره عدة أشهر حتى سنتين » . . . . . . « يتأثر نمو الطفل في المرض فيبدو صغير الحجم وأقل سناً من أقرانه الأصحاء وإن عاش إلى سن البلوغ فهو قاصر تناسلياً ومصاب بفاقة دموية »

ص . ٣٥

« بما أن هذا المرض وراثي فلا توجدمعالجةشافية له ولا فائدة من إعطاء أي دواء لذلك فوصف مركبات الحديد لمرضى هذا الداء لافائدة منها إن لم تكن ضارة بسبب ترسب الحديد في الأنسجة بالإضافة إلى ما يرد إليها من مخلفات الكريات الحمر المنحلة . والشيء الوحيد الأساسي الذي يمكن أن يوصف هو نقل الدم مدى الحياة وبمقادير معتدلة تتناسب وفاقة الدم عند الطفل » .

ص . ١٣٨

تتمة القصة

كان الطبيب ملتفاً على ساق شاكر البحري عارياً كدودة كبيرة . كان يلهث ويهق وينتفض وينشج وجسده يتصبب عرقاً بارداً .

— « سيذبحني ! هددني بالموت إن قلت ! !خبئني أرجوك ! أنا وحيد أمي ! ! داخل عليك ، لاتدعهم يذبحوني . لا ! لا ! ! » .

جمد شاكر البحري في مكانه — تصاعدت أنفاسه وجحظت عيناه :

— « ولماذا تأخذ من صويلح وحده ؟ ! ! »

— « أقبل نعلك ! كاد محمد أن يموت البارحة ! زمرة دمه نادرة . . نادرة لاتلائمها إلا زمرة دم صويلح ! أنا بريء ! هددني . ! ! » .

بدأ شاكر البحري يترنح . سقط الخنجر من يده . تكوم فوق جسد الطبيب . أخذ يهق وينتفض .

— « حا . . زم ! ! ! ؟ »

تدحرجت نقطة دم من شفته المسحوقة بين أسنانه . انفجر مقعقعاً . يضحك . . يبكي . . يخور . . يفح . . يعوي . . يتهدم .

– « لهذا أبقاني ! !

لهذا ! !

لهذا ! !

لهذا ! ! ! ».

دمشق – ايار – حزيران ١٩٧٦

★ ★ ★

عليشي شخيدي

الجمهورية اللبنانية
وزارة الداخلية والأمن الداخلي
مفوضية كسروان
مخفر ناريا

التاريخ : ٨ أيار ١٩٦٨
الخلاصة :

في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الجمعة الواقع في الثامن من أيار ١٩٦٨ نحن الشاويش حنا غصين والدركي يوسف زليخا من مخفر حراجل تابع مفوضية كسروان نثبت مايلي :

بينما كنا نقوم بأعمال الدورية الإعتيادية في الوقت والتاريخ على طريق فاريا — حراجل وإبان وصولنا على الجسر عند بيت الكتائب ترامت إلينا صرخات استنجاد

من خلف الكوع . هرعنا إلى هناك فوجدنا شغيلاً ينزف من جرح في رأسه سألناه عن الفاعل فدلنا في التو على شاب كان يلوذ بالفرار عن طريق بستان الخواجةحنين. أمرنا الشاب بالتسليم فانصاع فألقينا عليه القبض . وعليه فقد تم إيقاف سيارة عامة عابرة بناء على أمر رئيس الدورية تم نقل الجاني والمجني عليه بواسطتها إلى فاريا حيث أسعف المجني عليه وبوشر بضبط أقوال الجاني على الشكل التالي :

هويته :

اسمي حسن يوسف بن محمد والدتي سكينة من مواليد ١٩٤٨ من قرية الدالية التابعة قضاء جبلة من محافظة اللاذقية . متعلم في صف البكالوريا . عازب ومن التابعية السورية .

إفادته :

سألناه أفدنا عن سبب اعتداءك على مواطنك السوري عليشي شخيدي بن حميدان في محلة الجسر على طريق فاريا — حراجل فأجاب :

الوجه الاخر لافادة الجاني

دق الصوت المشروخ صدر الليل الجبلي الشاسع بخشوع أليم كفلاحة تنهمر على نعش ابنها العسكري :

(والليلة ليلة حرب

ضناي وين تنام ؟

لانصب نهيدي جسر يا غالي

وقطعك للشام .

ا . . ل . . ش . . ا . ا . . م

ويلي أنا ويلي !)

وجمت هوام الليل لحظة وبهت الأفق فوق جبل كسروان كما لو أن السماء قد شقت ثوبها الليلي .

إنه الفجر . فجر آخر يشقشق عينيه ويتمطى .

على مطل حراجل تحت إبط الجبل المدثر بالأشجار المثمرة تقف ستة أعمدة تحمل سقفاً لاجدران له. من تحت ذلك السقف نشب الصوت المجرح العطشان مهراً أبيض يخب في سهل متفحم ودمه يخطط صدره .

غردت قبرة على شجرة تفاح قريبة . عبقت انفاس

الأشجار ورائحة الأوراق المتخمرة بالندى وبرز من عمق الصمت خرير نبع قريب .

دبت الحركة تحت السقف وارتفع صوت معفر بالنوم من تحت غطاء :

«ما بك يا عليشي ؟ أرواحنامحروقةبالباتون ! اتركنا نغف قليلا كرمى للنبي!»

رد عليشي بلهجة معتذرة:
–«الصباح للفتاح! صار الظهر. أم أنت تستريح اليوم؟!.

كشف الآخر عن وجهه. لملم الأفق بنظرة عجلى ثم قال قبل أن يدفن رأسه:

–«أستريح ؟! والله لن استريح إلا عندما يأخذ أمانته! ياسبحان الله في طبعك. قل لي ، لماذا تفيق قبل الضوء؟ ألا تتعب؟!» .

اتضحت معالم الجبل وبدت الدنيا ترتدي غلالة زرقاء وبانت تحت السقف الوحيد أربع كومات بشرية مبعثرة بين أخشاب القالب. هدر محرك لضخ المبيدات في بستان مجاور وبعد لحظات ترجلت رائحة المبيد المقززة في أنوف النائمين.

تململ عليشي شخيدي تحت لحافه الرمادي المهلهل . أصلح وضع حذائه العسكري الملفوف بثياب العمل كوسادة تحت رأسه . أطلق شتيمة مقذعة خافتة. شد اللحاف حول عنقه وأخذ يحدق في السقف من جديد . بعد فترة من السكون العميق قال عليشي شخيدي بصوت بعيد:

-«أدهم ، تسمعني؟»

تقلب أدهم بنزق. ارتفعت خشخشة اعشاب يابسة ومزق اوراق من تحته. دفع اللحاف عن ذقنه المرسلة قال من بين أسنانه مشدداً على كل حرف:

-«أسمعك!!»

-«سألتني لماذا أفيق من وجه الضوء . اتركها في القلب تجرح ياأدهم. وحياتك لم أقل هذا حتى لحلالي، لكنك شغيل قدر الشغيلة وتعجبني. لهذا أقول لك. أتعرف ياأدهم؟ في كانون.. في عز الصقيع كانوا يفيقوننا من وجه الضوء ويعروننا كما ولدتنا أمهاتنا ويرشون ثيابنا بالماء المثلج ثم يجبروننا على لبسها ! ومن يومها . . من يوم ترجيعنا لم تقم الطبيعة معي - حاشاك - إلا مرة واحدة وأنا خائف ياأخي» .

بعد لحظات من الصمت تابع عليشي شخيدي الكلام همساً :

«... تصدقني ياأدهم . وحق رأس أمي مايزال بدني يقشعر مع وجه الضوء كأنني مازلت أسيراً في اسرائيل!»

ارتجف أدهم. رفع رأسه ونظر إلى عليشي شخيدي بعينين يقظتين :

— «عدنا الى هذه السيرة ! صارت الظهر . قم .

قم يا الله، اغل الشاي لكن اياك ان تشغل نثره من قالب العمارة . البارحة اقسم الخواجة أن يكعرنا كالكلاب اذا مددنا أيدينا اليه. إياك ياأخي، فلن نجد من يسمح لنا بالنوم في عمارته مجاناً! ...

نهض عليشي شخيدي بكامل ثيابه دافعاً لحافه القذر جانباً. نظر الى خد الأفق فتذكر زوجته المتوردة ابداً. حرك يده كما لو أنه يكنش صورتها من عينيه. قال :

—«سأجلب خبز اليوم ».

مشى خطوة ثم التفت مشيراً إلى أحد النائمين :

—«لاتنسى أن تفيق الأستاذ! ابعثه باكراً الى الساحة . مسكين ! له اسبوع يتشمس هنا . يحكي لنا عن الاشتراكية والديمقراطية والإصلاح الزراعي ولا يشتغل بعقب سيجارة!».

ركل النائم المشار اليه غطاءه بنزق وحملق في وجه عليشي شخيدي فارتبك الآخر واستدار ملوحاً بيديه
–«سأجلب الخبز» .

الساحة

في الساحة تصب دروب حراجل . ومع انتشار الضوء يجيء الشغيلة ، يتبعثرون في الساحة ، يراقبون المفارق التي ستلد من سيشترون أيامهم .

أمام دكان يوسف البقال استند شغيل بدين إلى شجرة توت منخورة يغني موالاً عتيقاً بصوت خفيض ويطوي بتأن كيس ورق ليصنع منه قبعة واقية من الباتون وإلى جواره رجل ناضج البشرة بارز العضلات يبتسم له بود ويدرج سيجارة رفيعة ممسكاً علبة تبغه بخنصره وبنصره كي تسقط فيها حبات التبغ الزائدة عن السيجارة. أمام دكان الحلاق التف عدد من الشغيلة حول شاب طويل عريض الجبين متربع على صندوق فارغ. إنه ابراهيم كويتع الملقب بالراديو يحكي:

–«... ما علينا ، كسره!»

وعند العصر باشر عباس النخير. قال لي: «نشف

ريقي. ابن العاهرة يريد تمويتي!» حاول ابراهيم أن يقول له السبب فدست على رجله ولكزته. قلت لحالي خله كي يتربى ياولد! نهايتها قبعت معه .. حمل نفسه وطفش .. زخمه الخواجة :« إلى أين رايح؟» رد عليه من رأس منخره: «إلى العين أشرب». قال الخواجة معانداً: «هاك الكوز . اشرب منه » . عندها فتح عباس فمه ثم شرق مخطته وقال :«ستكسر الكوز!» رد عليه الخواجة بغضب :«اشته. إما أن تشرب من الكوز أو تروح ولا ترجع!» سينما ياشباب ! سينما! أي وحق الله صار عباس أحمر كسوءة السعدان. أين أعينكم تراه ! أخيراً هجم على الكوز كالانتحاري.. وحينما لامست شفتيه بز الكوز اربد الخواجة . طق ! صار يركل الأرض ويلطم رأسه كالمجنون ثم نط على عباس ! أي أي أي . سينما تجنن! أمسكه من أذنه وبدأ يركله ويصرخ: «ياششمة! ياشيء الجحش! جعلتك تكسر كوزين لأنك رضعتهما، فترضع الثالث ياديوث! أليس عندك مخ ؟! رح تخوزق! لن أدفع لك! رح! انقلع ! » .

دخلت سيارة شحن من طرف الساحة الشرقي فلمّ

ابراهيم كويتع لسانه وكفكف الشغيلة ضحكاتهم . توقفت الشاحنة في منتصف الساحة. نزل منها رجل بدين يرتدي قبعة بلاستيكية ويدفع كرشه امامه .توقف أمام غرفة تقوية التيار الكهربائي . قلب الوجوه بعينيه المزمومتين ثم اتجه نحو المجموعة الكبرى قائلا بلهاث وعلى وجهه ابتسامة فضفاضة : « بونجور يا شباب . الحال مليح ؟ سليمان وابراهيم وعليشي وأنت وأنت وأنت، تشتغلون على الكسارة ؟ النهارية سبع ليرات وعلبة «بافرا» أوكيه شباب؟ روَّجوا».

عدة شاحنات وعدة جرارات جاءت. ابتلع كل منها حاجته ومضى ..... وبقي حسن .

آخ !

...وتجف الساحة، أبقى في قعرها سمكة تختنق. زوادتي مصرورة في شال أختي ، الشال الذي اعطتنيه لأشتري لها عوضاً عنه . زوادتي قرصان بندورة وثلاثة أرغفة ومائة غرام لبن مصفى وقرن فليفلة حلو.. زوادتي في يدي وأبقى ...

ثماني شموس .. ثمانية بقاءات طويلة وعيون «المعلمين» تدوس فوقي وتمضي. نقودي خلصت. الجوع يشدني

نحو قريتنا وعار استدانة أجر الدرب والعودة بهذه الثياب البرشاء يضغط على قلبي ويسحقه.

★ ★ ★

فرك حسن عينيه الملتهبتين براحته . مسح الساحة مرة أخرى . ارتد بصره إليه خاوياً . رطمه كما الموجة الغضبى . أحس بصعوبة في التنفس . برز له من قعر الغشاوة وجه صارم معتّم :

— « ألا ياعديم النفع ! ليتني أنجبت « جاغة » تبن عوضاً عنك ! قل لي ياوجه النحس . ألا تكفينا ديوننا حتى تروح وتفتح لنا خانة جديدة في جبل لبنان ؟ ! »

ارتفعت الشمس . شابت عينا حسن . . . .

ولا أحد .

آخ !

أبقى قليلاً ربما جاء أحد .

لا . . لافائدة . ليس شكلي شكل شغيل. سأسافر . سأبيع البطانية واللحاف وكيس الخيش الذي يقوم مقام حقيبتي . سأقول لهم أنني ضيعت أغراضي في حادث باص عند مفرق

« الزاق » في المكان الذي اندهس فيه زاهر حبابة . لا . سأبقى قليلاً . ربما . . .

* * *

أحس حسن بصدره كعش خاو معتم لاقاع له ، اجتاحته قشعريرة كالتي تجتاحه في الأوقات الفجرية عندما يقلق عليشي شخيدي ويطالق مواويله في دروب الليل .

– « شغيل ؟ »

استدار بحيوية بالغة وزعق كمن يستنجد :

– « شغيل . نعم شغيل . أتريد شغيلا ؟ ! »

ارتطمت عيناه بعيني الرجل الحمراوين الباردتين . لعق الرجل شفتيه ثم زمهما علامة على عدم الرضى . بعد لحظة ثقيلة دس الرجل أصابع يدهاليمنى تحت حزامه الجلدي وقال بصوت نيء :

– « أريد شغيلا ، نعم »

سحب يده بسرعةوساط فخذه بها . تكورغارقاً في لجة من الضحك والسعال .

تجشأ ، فاحت منه رائحة « العرق » قال بصوت متقطع :

– « ابن الفامين دفعة واحدة ! لم يوقظني . شيئي في لحية أملك يا مطانيوس ! »

رفع عينيه إلى حسن ببطء :

– « شف يا شاب أنت« معصمص » كقلم الرصاص وبائن من راحتيك أنك لم تسلم على فأس في حياتك . لكنني آخذك . . أدفع لك نصف أجر . وإذا أعجبتني أعطيتك أجراً كاملا . . مليح ؟ » .

همس حسن بذهول :

–« نصف أجر ! ؟ »

زم الرجل شفتيه مرة أخرى وقال ببرود :

–«صارت الظهر . تفوه على « العرق » ويومه !وحق العذراء لن أشرب اليوم ! » .

...وعندما استدار الرجل مبتعداً رأى حسن أباه ورأى أخته ورأى الفتاة التي يعشقها ورأى . . . فصاح :

– « أشتغل ! » .

* * *

كان حسن يرفع الرفش مترعاً بالطمي الأسود من قعر مستودع مياه صغير ويطوح به خارجاً . كان يزيد من سرعته كلما أحس باقتراب أحد منه على أمل أن يراه المعلم ويعطيه أجراً كاملا . انقبض قلبه عندما تذكر ابراهيم كويتع . تصوره وهو يقول بدهاء : « نصف أجر لنصف رجل . عدل . هذا هو العدل وإلا فلا ! قلت لكم يا أخوان . الدنيا لا تمشي بالأستذة وطق الحنك . شوفوا واعتبروا ! » .

رفع حسن يده كي يمسح العرق عن جبينه . جاءه صوت مألوف من خلفه :

–« مبروك عليك . هل لقيت شغلا . مليح » .

التفت حسن إلى مصدر الصوت وقال باستغراب :

– « عليشي ! ما الذي جلبك إلى هنا ؟ ! أما رحت مع الخواجة مخايل ؟ » .

تلمظ عليشي شخيدي بفرقعة وقفز إلى المستودع . نط وطال عصا رفش عن حافة المستودع . سحب الرفش

وهزه كخبير ثم رفع عينيه الضاحكتين إلى وجه حسن :

— « تعاركت أنا وإياه . العمى ! يعاملنا كالبهائم ! » .

دفع عليشي الرفش في الطمي. بصق في راحته اليمنى ، فركها باليسرى ثم نخر واقتلع الرفش مترعاً إلى الأعلى .

— « شد عزمك . سنشتغل سوية . اتفقت مع معلمك. رجل نمس ! قل لي كيف تشارطمتا ؟ كالعادة ؟ »

رد حسن متلعثماً :

— « لا ، نصف .. أجر » .

زعق عليشي شخبدي مندهشاً وهو يحك ذقنه الكثة:

« العكروت ابن العكروت ! نصف أجر ! سأدبره ! »

أطل المعلم على حافة المستودع المستطيل الضيق . نظر إلى الشغيلين بتشامخ وقال بلهجة المتفضل :

— « العافية . من اشتهى منكم تفاحة فليأكلها ، لكن انتبهوا البستان مسموم. يلزم غسل التفاح وإلا رحتم».

أسند عليشي الرفش إلى صدره . قال للمعلم غامزاً بعينه اليمنى :

— « كيف تشغل الشاب بنصف أجر يا معلم ؟ حرام عليك . هذا أستاذ مدرسة . كرمى للعذراء حاسبه بأجر كامل » .

نخز المعلم وقال مقلداً لهجة عليشي شخيدي :

ـ « كرمى للعذراء حاسبه بأجر كامل . وما علاقتك أنت ؟ ! ابتلع لسانك ! » .

غمز عليشي بعينه مرة أخرى :

ـ « المستودع ضيق لايتسع لإثنين يا معلم . هل عندك شغل آخر ؟ » .

سعل المعلم ثم قال ببرود :

ـ « أنت يا شاب . هات يدك » .

...وبجذبة واحدة كان حسن خارج المستودع . مسح الطمي عن يديه بخرقة وقال بلهجة عملية :

ـ « مرني يا معلم » .

ـ « سآمرك . اخلع الجزمة ورح إلى الساحة علك تجد شغلا هناك ، لست بحاجة إليك » .

زعق حسن :

ـ « أروح ! عطلت نهاري ! و . . . »

أخرسه المعلم بصوته المهدد :

— « هس ! إذا كنت تريد أن تفطر كفين ثلاثة فانتظر ! »

التفت حسن إلى عليشي شخيدي فابتسم الأخر وقال غامزاً بعينيه :

— « رح . دور على شغل وعند المساء نتفاهم » .

خلع حسن الجزمة بعنف. التقط زوادته عن سياج البستان وزمجر :

—«طيب يا عليشي ! عند المغرب نتفاهم ! ! » .

* * *

جلس حسن على صخرة بازلتية كبيرة بجانب طريق فاريا حراجل . إنه الغروب الجبلي . غروب أخضر قان معتق :

في السماء رغيف عصافير ينضج محمراً كلما ابتعد نحو الشمس . على جانبي الصخرة ، خلف الأسلاك الشائكة ، تقف أشجار التفاح واجمة كالمذنبة وأغصانها مثقلة بالخدود الخجلى. على الطريق سيارات وصبايا وشظايا أغان ...وتحت الصخرة نبع يضحك كاشفاً عن أسنان سرابية ناصعة كالثلج . . . وكالنار كان حسن . كان يعجن أصابعه

ويكلم نفسه :

— « . . الكلب ! ليته فطس في حزيران .
يبصق البصقة ثم يلعقها . يدروش نفسه ويسرق مني أول فرصة ! الديوث ! قلت له بأنني مفلس ، فكيف طاوعه قلبه ؟ ! كيف ؟ ! قسماً . . . . »

— « ما بك تحاكي نفسك ؟ هل جننت يا حسن ؟ ! »
رفع حسن رأسه من بين يديه كالمصعوق فرأى عليشي شخيدي تحته ينظر إليه باستغراب وسخرية . انتفض . التقط حجراً من السياج هب واقفاً وصرخ مكشراً عن أسنانه :

— « خـذ ! ! » .

— إفادة عليشي شخيدي —

وكان قد تم قطب جرح المجني عليه أربع قطب وعندما استعاد وعيه بوشر بضبط أقواله على الشكل التالي :

هـويتـه :

اسمي عليشي شخيدي بن حمدان والدتي خزنة من

قرية الشندخة تابعة قضاء بانياس محافظة طرطوس . شغيل مياوم . أمي لا أقرأ ولا أكتب .متزوج وعندي ثلاثة أولاد ومن التابعية السورية .

إفادتــه :

سألناه أفدنا عن سبب اعتداء المدعو حسن يوسف بن محمد عليك قرب محلة الجسر على طريق فاريا – حراجل فأجاب : أصادق على صحة أقوال الجاني وأتنازل عن حقي الشخصي في الدعوى وعليه فقد أقفل المحضر وأطلق سراح كل من الجاني والمجني عليه لعدم وجود المانع

الشاويش حنا غصين — الدركي يوسف زليخا

توقيع — توقيع

– . على طريق فاريا حراجل . –

تلكأ حسن أمام المخفر خوفاً من عليشي شخيدي ، وعندما أقنع نفسه بأنه قد غادر فاريا بدأ البحث عن مكان يقيه الندى ويؤمن له القليل من الدفء . فكر بالكنيسة . . . . وبينما كان يعبر الطريق نحو بوابتها اشتبكت ذراع بذراعه وسحبته بقوة . زمجر عليشي شخيدي .

— « هس ! ولا كلمة ! »

عندما أفاق حسن من ذهوله وجد نفسه منقاداً لذراع عليشي شخيدي الراسخة يتخبط في العتم على الطريق

كان يسير بآلية وغياب منكمشاً كمن يتوقع أن يصفع وكان يحس أن الطريق يتمطى ويصير لزجاً ثقيلاً لانهاية له .

وصلا مكان الحادث . أراد حسن أن يجتاز البقعة بسرعة لكن عليشي شخيدي شد على ذراعه . أمسكه من ذقنه وأدار وجهه نحو بقع الدم التي بدت سوداء تحت ضوء الهلال الواهن . غام وجه عليشي شخيدي . تموجت ملامحه الصلدة الموتورة . بصق :

—« شف يا أستاذ ! »

تحسس جرحه فوق الضماد. واجه حسن. نكس الأخر رأسه وأخذ يحملق في الأرض كما لو أنه يرجوها ابتلاعه . . . . وأخيراً تمتم عليشي شخيدي بصوت خافت :

—« ... كان مستحيلاً أن يشتغل اثنان طوال اليوم في المستودع

كنا سنخلص من نزحه بأقل من نصف نهار . . كنت ستأخذ ربع أجر وأنا نصف أجر وكنا سنخسر ربع أجر . . .»

استجمع حسن نفسه وسحب ذراعه :

— « اتركني لحالي ! » .

صرخ عليشي شخيدي :

— « أتركك ؟ إلى أين ؟ ! تنام في البرية ؟ ! اسمع يا أخ ! اسمع يا اشتراكي ! اسمع ! لن أعاملك بمعاملتك ! أقسم بخبز أولادي الثلاثة وبرأس أمي وعفة حلالي أنني كنت سأعطيك نصف أجر ! لكن الحقد أعماك ! فججت رأسي ! ظننتني أستاذاً مثلك أشفط كل شيء ؟ ! لا يا أخ . لو كنت هكذا لقلت الحقيقة للبوليس . . . »

تحشرج صوت عليشي شخيدي . احتقنت عيناه . أستدار أخرج ورقةنقدية من جيب قميصه الكاكي الملطخ بالدم .ا ستدار قائلا بحزم :

— « اسمع ! ستسبقني إلى المنزول . . . ستسبقنيوتقول لهم بأنني وقعت عن القالب ! انفج رأسي لأنني وقعت عن القالب . أتسمع ! » .

دس عليشي شخيدي ورقة النقد في جيب قميص حسن .
قال بقسوة .
ـ « أنت مسافر غداً . أتسمع . أنت مسافر . . اسبقني !
ـ » . . . .

الدالية – دمشق – تشريني ١٩٧٦





الفهرس

استفتاح	٥
انزلاق أيوب تحت الشمس العمودية	١١
اطمئنان	٢٣
سيف يعبر المدينة	٣٥
هم يبتسمون أيضا !	٤٥
العريف غضبان	٥٧
تحولات حميدو	٦٩
برهان	٨١
ثلاسيميا عظمى	٩٩
عليشي شخيدي	١٢١

٢٠٠٠ ـ ٢ ـ ١٩٧٨



لبنان — بيروت

تلفون [illegible]

لوحة الغلاف : للفنان يوسـف عبدلكي

السعر : ٥ ل ٠ ل او ما يعادلها